الفصل الثالث

«الخبرات» الحليات

النساء والذرائع الأخلاقية لهيمنة الغرب

لعبت النساء، كعميلات ورموز، دورا مركزيا في تسويغ «الحرب علي الإرهاب»، التي شنتها بوش وفي «أجندة الحرية» التي واكبتها، وأيضا في سياسة «اليد المفتوحة» التي انتهجها أوباما تجاه العالم الإسلامي. يري زكريا أن العرب تقبّلوا مُرغمين تخلص النساء من الحجاب كدلالة علي الحداثة بعكس نظرائهم المسلمين في أنحاء أخري مثل تركيا الذين فعلوا ذلك بإرادتهم- هذا علي الرغم من توقف هذا التوجه حاليا في ظل صعود حكومة أردوغان. يؤكد زكريا، متحديا التجليات التي نشهدها في مختلف البلاد الإسلامية والعربية، أن الأنظمة السلطوية الصديقة تستحق دعم الولايات المتحدة لأنها تحرص علي حقوق النساء بالتقابل مع الأصوليين الذين لابد وأن يسعوا لحرمانهن من تلك الحقوق، بل إن المجموعات النسوية التقليدية المعادية للحروب مثل تلك التي تقودها ميديا بنجامين وكود پينك قد ذهبت هذا المذهب. وتلك الأطروحة ليست بالجديدة، فقد كانت قد استُخدمت مثلا من أجل دعم شاه إيران.

وبالمثل، كان لويس قد ظل لعدة عقود يلفت الانتباه إلى سوء «معاملة النساء»، «وبطريركية» العالم العربى التى رأى أنها سمة محددة للثقافة العربية، أى أنها أحد الاختلافات المفتاح التى تميزها عن الثقافة الغربية. يذكر فى كتابه «أين الخطأ؟» أن «وضع النساء قد يكون أكثر الاختلافات عمقا بين الحضارتين»، كما يعتبر أن عدم تحرير النساء هو الملمح المحدِّد الذى يؤكد تخلف المجتمع العربي/ الإسلامى «إنه محك الاختلاف بين التحديث والغربنة، والغربنة، بالنسبة للمحافظين التقليديين والأصوليين المتطرفين ليست ضرورية أو مُجدية، بل ذميمة ضارة، خيانة للقيم الإسلامية الحقة».

تماثل هذه الأطروحات ما جاء فى أعمال بعض المثقفين العرب مثل هشام شرابى وحليم بركات اللذين ساهما ما قال به لويس، بل إنها مجتزأة من تلك الأعمال. يذكر شرابى فى كتابه «البطريركية الجديدة» أن أساليب التفكير البطريركية، وبخاصة

التفريق بين النوعين، أعيد العمل بها في العالم العربي أثناء فترة الحداثة، مما أدى إلى وجود ما يسميه زكريا أنظمة ومجتمعات «غير ليبرالية». من المهم هنا أن نذكر، وعلى الرغم من أن أعمال شرابي أكثر تعقيداً بكثير وإلماما بالمعلومات من أعمال زكريا، أن استخدام الأصوات العربية النافذة للعرب هي استراتيجية استُخدِمت لخدمة «الحرب على الإرهاب» مثلما استخدمتها وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون في «الحملة الكوكبية من أجل النساء».

ظلت قضايا الجندر والجنسانية منذ وقت طويل نقاطاً جدالية في مناقشات العالم الإسلامي، داخليا وخارجيا، وكانت قضايا الجندر تستخدم نقاطا فاعلة في حشد الرأي العام للطعن في المسلمين جميعهم وفي الثقافات الإسلامية وبدءا من أوريانا فلاسي، وبتي محمودي وآزار نفيسي وأزاده مواقني و إسراء نعماني، ظلت النساء تطلقن حملات نقد طنانة ضد الرجال المسلمين والثقافات الإسلامية التي تشجع على

كره النساء وعلى البطريركية بحيث بدت تلك الممارسات أكثر كثيرا مما يحدث فى الثقافات المسيحية واليهودية والهندوسية فى الغرب وجنوب أمريكا وآسيا وإفريقيا.

القائمة - B: دعاة الإسلاموفوبيا المحليين / المحليات

ظلت قضية الجندر شوكة رئيسية فى الرمح ثلاثى الشُعَب الذى يستخدم استراتيجيا لتوحيد الحزبين والدعم الجماهيرى لتدخل الولايات فى العالم الإسلامي. ينهال على الإعلام باللغتين العربية والإنجليزية طوفان من الهجمات التى تشنها مُدّعيات مسلمات وعربيات مثل إيان هيرسي علي، وإرشاد منجي ودونى درويش ووفاء سلطان، وبريچيت جبرييل، هجمات ذات مركزية أوربية على الإسلام. لا تذكر مراكز الأبحاث اليمينية، ومؤسسات العلاقات العامة، ومجموعات المصالح الصغيرة وغيرها من «المراكز» المزيفة التى تبنت هؤلاء النساء حقيقة أنهن لا يتمتعن بأية خبرة أو مسوغات أكاديمية أو سياسية. مثلا، نذكر أن جبرييل مسيحية يمينية لبنانية عملت لحساب جيش لحد الجنوبى الذى كان ميلشيا عميلة لإسرائيل فى جنوب لبنان المحتل آنذك. بدأت عملها «الصحفي» فى تليفزيون الميدل إيست، المنفذ الإعلامى لشركة البث الإعلامى المسيحى التابعة لرجل الدين المتعصب الأمريكى پات رويرتسون، فى فلسطين ولبنان. وبدون أى تدريب رسمى كصحفية أو حتى درجة جامعية أصبحت شخصية إعلامية فى محطة تليفزيون الميدل إيست الإخبارية بالقدس الشرقية المحتلة. تتحدث علنا وكأنما هى مرجعية مطلعة «من الداخل» على الرغم من أنها مسيحية لبنانية يمينية لا تربطها علاقات حقة بمواطنيها المسلمين حيث إنها غادرت لبنان إلى إسرائيل بعد المرحلة الثانوية مباشرة. تقوم مكانة جبرييل الوظيفية على أساس إطلاق التحذيرات الشوفينية التى تؤكد رغبة المسلمين فى تدمير كل ما هو طيب وجميل، وعلى الرغم من فجاجة هذياناتها إلا أنها تتكون بشكل أساسى من سرقات أسوأ الأعمال الأكاديمية الزائفة التى تروج للإسلاموفوبيا مثل كتابات روبرت سبنسر، وستيف إمرسون وبات يائور ورفائيل بطى الذين يذهبون فى هذيانهم إلى حد الجنون بحيث تبدو كتابات برنارد لويس أكاديمية وموضوعية بالمقارنة. بيد أن الفضل فى

وصول جبرييل إلى الجمهور الغربي يرجع إلى كتابين أصدرتهما لها، للأسف، اثنتان من دور النشر المحترمة وهما: «لماذا يكرهوننا: ناجية من الإرهاب الإسلامي تحذر أمريكا» و«ينبغي أن نوقفهم: لم يجب علينا هزيمة الإسلام المتطرف وكيف نستطيع ذلك؟».

ليست جبرييل الوحيدة التي تستعمل لقب «صحفية» لإضفاء ما يشبه المصداقية على كتابات مبتذلة وعلى سيرة وظيفية خالية من المسوغات. نوني درويش مسلمة تحولت إلى العقيدة المسيحية الإنجيلية، وأسست جماعة «عرب من أجل إسرائيل»، تذكر في سيرتها الذاتية أنها عملت لبضع سنوات في شركة إعلامية تملكها الدولة بيد أنه ليس ثمة ما يثبت صحة هذا. تمكنت، كابنة لضابط مصري قُتِل أثناء إقامته في غزة من أن تؤسس لنفسها مكانة في الأوساط الإنجيلية اليمينية بصفتها «مخبرة من الأهالي»، بنشر عملين دعائيين عُصابيين ضد الإسلام والمسلمين بعنوان «بسموني كافرة» و«عقوبة غير معتادة» ثم بثت «مقالا» على الإنترنت تتهم فيه الرجال المسلمين بزواج بنات قد يبلغن من العمر عاما واحدا، ثم يتملكوهن لدى بلوغهن التاسعة. ونوني التي لا تملك أية مؤهلات أكاديمية أو بحثية أو مهنية تسوغ لها الحديث عن الإسلام باستثناء «خبرتها» الخاصة وحياتها كمسلمة سابقة، تصور نفسها كضحية وبطلة في آن، وهو أمر معتاد في كتابات «المخبرين/ المخبرات المحليين» وبخاصة النساء اللاتي يُعلنّ آراءهن المعادية للإسلام.

بعد ٩/١١، ثم بتزايد بعد غزو العراق، تسللت أعداد أكبر من «المخبرات المحليات» إلى إعلام التيار الرئيسي، وتمثل وفاء سلطان النموذج الكامل لهذه الظاهرة حيث تجمع بين الانتهازية ومسوغات «المخبرات المحليات». أبحرت سلطان إلى إعلام التيار السائد الأمريكي تدفعها رياح الإسلاموفوبيا البغيضة التي انطلقت من صندوق باندورا المليء بالشرور والذي فتحه تعطش الإعلام لقصص الرعب التي ترويها نساء مسلمات عن الآباء والأشقاء والأزواج المسلمين. ومثل درويش وجبرييل، فإن ما اكتسبته سلطان من شهرة خاطفة لم يكن بسبب قوة روايتها أو مصداقيتها، بل

بسبب تعطش الجمهور الأمريكي واحتياج حكومته إلى رواية تبرر العسكرة الأمريكية، والحرب على أفغانستان والعراق والدمار الذى لحق بهما، والقصف غير المشروع لباكستان واليمن، والدعم العسكرى لإسرائيل وإمدادها بالأسلحة الفتاكة لقتل المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين. أما الفرق بين سلطان ونظيراتها فهو أنها تسوّق نفسها بصفتها «إخصائية نفسية» هذا على الرغم من أنها لم تمارس المهنة بالولايات المتحدة، كما لم تحصل على مصادقة أو اعتراف من «الجمعية النفسية الأمريكية». لا يعطى لقبها كإخصائية نفسية مصداقية لما تقوله عن «العقل العربي» بقدر ما يمنح التبريرات للسياسة الخارجية الأمريكية باعتبار أن مصدرها شخصية مهنية.

ليس ثمة أسباب قوية تجعلنا نصدق أى شىء تقوله سلطان التى حصلت على وضع قانونى بالولايات المتحدة من خلال ملابسات مشبوهة بأن قامت بتقديم طلب إقامة بمقتضى خطة للعفو الشامل اختُص بها عن المهاجرين غير الشرعيين العمال اللاتينيين. عملت بمطعم للبيتزا فى جنوب كاليفورنيا، وكانت بين الآونة والأخرى تقوم بكتابة مقالات لموقع إلكترونى سوري/ أمريكى يمينى يملكه مسيحى إنجيلى سوري. أدت دعايتها لنفسها فى الوسائط الإلكترونية العربية إلى تسللها وظهورها الأول على قناة فضائية إخبارية حيث استضافها فيصل قاسم فى برنامجه «الاتجاه المعاكس» على قناة الجزيرة (٢١ فبراير ٢٠٠٦)، حيث لم تُضيّع على نفسها الفرصة لخلق مشادة خلافية، فى مناظرتها مع شيخ أزهرى «درجة ثانية». مضت تجتر تأكيداتها التى اختبرتها حول لا عقلانية الثقافة العربية وقمع النساء ثم هاجمت عدم قدرة الإسلام على السماح بالعلمانية وأصرت على وجوب صنع سلام مع إسرائيل. وعلى حين أن سلطان كانت نكرة مجهولة قبل ظهورها على الجزيرة فقد أكسبها ذاك الظهور شهرة مؤقتة وسوء سمعة فى الوسائط الإعلامية العربية أيضا. سرعان ما بثت مجموعة MEMRI الإعلامية الصهيونية ترجمة لهذا الحوار حيث تم تداوله فى عدة قنوات مما جعل من سلطان الطفلة المدللة فى أوساط الإسلاموفوبيا المتطرفة. نتيجة لهذا استطاعت أن تؤسس لنفسها كيانا مهنيا فى هوامش الحياة السياسية الأمريكية وأن تشبع رغبة التيار السائد لمزيد من البذاءات اليمينية حول الإسلام.

ومثل كثير من نظيراتها، استطاعت سلطان استغلال النقاشات الخلافية التى ارتبطت بها لتحصل على عقد لكتاب نشرت به سيرتها الذاتية بعنوان «الرب الذى يكره: المرأة الجسورة التى أشعلت العالم الإسلامى تتحدث ضد شرور الإسلام»، حيث كالت الاتهامات غير المسئولة للمسلمين وللثقافة العربية واصفة إياهم بالعصابيين غير الأسوياء نفسيا.

هذا الصف الثانى من «المخبرات المحليات» يتشاركن فى الكثير. يتناقض تحولهن السريع من نكرات إلى شخصيات شهيرة مع عدم وجود مؤهلات لديهن تمكنهن من التحدث كمرجعيات عن الإسلام والعالم العربي. كما يتعارض بغضهن العميق للإسلام ودفاعهن المزعوم عن النساء المسلمات مع كراهيتهن الواضحة لثقافة وعقيدة والمجتمعات المحلية لهؤلاء النساء. تسبب تبنى المنظمات اليمينية والإنجيلية والصهيونية لهن فى أن يحصلن على عقود لإصدار كتبهن من دور نشر «محترمة» كانت مستعدة فى تلك الحالات أن تهبط إلى مستوى الصحافة الصفراء. تتبع هذه المشتركات صيغة ثابتة فى صناعة «المخبرات المحليات» فى عالم ما بعد ٩/١١، حيث يحاولن جميعهن أثناء شهرتهن الاستهلالية إقامة جبهات ذات صدقية يقاومن منها الانزلاق مرة أخرى ليصبحن نكِرات لا أهمية لهن.

من ثم، غدا خلف كل «مخبرة محلية» منظمة أو معهد تولت هى إنشاءه. شكلت جبرييل «كونجرس الحقيقة الأمريكى من أجل أمريكا Act for America»، الذى يسعى لإقامة أفرع له فى المدن فى جميع أنحاء الولايات المتحدة من أجل «تعليم ملايين المواطنين الحقائق عن عَدوّنا»: الإسلام القتالي. وعلى الرغم من تباهى المركز بمجلس مستشاريه المكون من مشاهير الصهاينة اليمينيين ودعاة الإسلاموفوبيا من أمثال روبرت سبنسر وهارفى كوشنر ووليد فارس، فإن جبرييل تعترف فى إيميل تحاول من خلالها جمع التبرعات بعدم وجود موظفين أو هيئة عاملين أو مجلس إدارة أو مكاتب أو تمويل للمركز.

وبالمثل أنشأت درويش تنظيمها السياسى النكرة المسمى «العرب من أجل

إسرائيل» وعلى حين أنها تذكر أن التنظيم لا يعادى الإسلام إلا أنه «يتذكر بعميق الأسى والاحترام العرب الشجعان، المعروفين منهم والمجهولين، الذين قُتلوا أو عوقبوا بسبب دعوتهم للسلام مع إسرائيل» فيما يتناسى الأعداد الهائلة من الفلسطينيين الذين قتلوا أو أنزلت بهم أقسى العقوبات لسعيهم السلمى للحصول على الحكم الذاتى وحق تقرير المصير. حينما لم يترك «العرب من أجل إسرائيل» تأثيرا يُذكر أعادت درويش اختراعه تحت اسم «المسلمين المرتدين المتحدين». وعلى حين أن هذه المجموعة كانت من بنات أفكار درويش التى تعمل مديرة لها، إلا أن وفاء سلطان، وابن الوراق (مؤلف «لِمَ أنني غير مسلم» و«دفاعا عن الغرب» بين أشياء أخري) وغيرهم يظهرون على قائمة المؤسسين لها. ومثل ACT، فإن الأهداف المعلنة لمجموعة درويش هى «تعليم الجمهور الأمريكي وبخاصة السياسيون ومن يعملون فى النظام القانونى للولايات المتحدة حول كيفية تشجيع الشريعة الإسلامية لفرض عدالة الشارع المتشددة وغير القانونية على المرتدين» وأيضا القيام بالدعاية الكافية عن المعاملة التى يلقاها المسلمون المرتدون، بالداخل الأمريكى وفى أنحاء العالم، من نظرائهم المسلمين بما فى ذلك تهديد حياتهم، والعنف الجسدي، والامتهان، والنبذ من المجتمع، والحرمان من الميراث، وتخلى أسرهم عنهم».

من الأمور الدالة، أنه لا يمكن فصل الموقف «الإصلاحي» و«الناقد» للإسلام لهؤلاء عن تعصبهم/هن لإسرائيل. وفى واقع الأمر، فبمجرد وصولهم/هن الاستهلالى إلى التيار الأمريكى الرئيسي، يجد هؤلاء المخبرون والمخبرات المحليون جمهورهم الرئيسى بين الجاليات الصهيونية الإنجيلية واليهودية ويتلقون تمويلهم منهم وتعمل آلة العلاقات العامة والدعاية الإسرائيلية فى خدماتهم بحيث نجد أن الدرجة التى يدعم بها هؤلاء المخبرون/ المخبرات المحليون/ المحليات دولة إسرائيل صادمة وكاشفة لدرجة أن تحيزهم الفاضح يأتى أحيانا بنتائج عكسية. بيد أنه، فليست محتويات بياناتهم وتصريحاتهم أو تكرارهم للدعايات المبتذلة التى عفا عليها الزمن هى المهمة بالنسبة لميكانيزمات الإسلاموفوبيا، وإمبراطورية الولايات المتحدة والسياسات الإسرائيلية،

بل نجد أن وجودهم وتموضعاتهم الهزلية تخدم هدفا مزدوجا. من ناحية، فهم يمثلون نموذجا للاحتضان الغربي والنجاح الذي ينتظر العرب والمسلمين الذين يتحولون إلى البروتستانتية الإنجيلية ويسخّرون أنفسهم وهم جاثون لخدمة المصالح الإسرائيلية والأمريكية. ومن ناحية أخرى، فهؤلاء هم «المخبرون والمخبرات المحليون» المطلعون على بواطن الأمور الذين يتمثل دورهم في إثبات صحة تنميطات الإسلاموفوبيا، ومن ثم تبرير السياسات الأمريكية والإسرائيلية وجعلها ضرورية.

من ثم، تمضي درويش، وجبرييل وسلطان يتقيأن بصفاقة ودونما خجل الصيغ الأكثر تطرفا من الدعاية الصهيونية اليمينية المعادية للفلسطينيين. يقدمن «نموذجا» للإنجيليين المتطرفين، والمحافظين الجدد، والصهاينة اليمينيين على أن بإمكان العرب والمسلمين «المعتدلين» و«المنطقيين» أن ينكروا أن الفلسطينيين قد عاشوا أبدا في «الأرض المقدسة»، وأن يوافقوا على أن إسرائيل لم تتعامل أبدا مع الفلسطينيين سوى بكل نبل وشهامة وعدالة. وإلى جانب «أكل العيش»، فإن سبب وجود درويش يكمن في تعظيمها قدر إسرائيل، والتقليل من شأن الفلسطينيين والاستخفاف بهم إلى جانب التشهير بالمسلمين والإسلام. بعيد ظهور سلطان على الجزيرة، سرعان ما أجرى أحد المذيعين بالإذاعة الإسرائيلية حوارا ومعها، مضى يكرر أثناءه «كم أحبك». وفيما بعد، وباستثناء ظهور نادر لها في منافذ إعلام التيار السائد الأمريكية، غدت كل أحاديثها مقصورة على المناسبات التي تقيمها الجهات اليمينية الموالية لإسرائيل.

وبالمثل، فقد تواطأت جبرييل مع قوات جيش الدفاع الإسرائيلي أثناء احتلالها للجنوب اللبناني، وبلغت في انحيازها للصهيونية درجة قال فيها أحد محاوريها بصحيفة الجيروزالم بوست إنها تدمج بين القتال «ضد الإسلام الراديكالي» وبين خلاص الغرب وإسرائيل، وبل والمسيحيين العرب. أيضا، تعمد إلى تزييف تمثيل المجموعات المسيحية والمسلمة في المنطقة مؤكدة أن المسيحيين ظلوا يعيشون لمئات السنين خاضعين لطغيان المسلمين وظلمهم لهم. وفي واقع الأمر، فإن جوهر ميولها الصهيونية وأنشطتها ونظرتها إلى العالم مستمد من إرث الموارنة اللبنانيين الفاشستي

الذى مثّل الدعامة الرئيسية لأيديولوجيا حزب الكتائب اللبنانى الانتهازية وجيش لبنان الجنوبى العميل لإسرائيل أثناء الحرب الأهلية. تتمحور مهمة جبرييل وجبهة ACT وأنشطتها المدنية حول ضمان أن يظل «المسئولون المنتخبون فى الولايات المتحدة متيقظين فيما هم يؤدون واجباتهم للدفاع عن الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل، الديموقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط وحمايتها» وأيضا «أن يتم تدريب الأعضاء على اليقظة والرد السريع على التحيزات الإعلامية المناهضة للولايات المتحدة وإسرائيل ومعها السلوكيات الاجتماعية والسياسية والدينية».

قد يكون أكثر ما يثير القلق حول القائمة B من دعاة الإسلاموفوبيا المحليين/ المحليات هى الدرجة التى يتودد بها التيار الرئيسى إليهن/ إليهم على الرغم من أصولهن/ أصولهم اليمينية المتطرفة ومواقفهن/ هم المعلنة. وفيما تكمن عائداتهن/ هم المادية فى صلاتهن/ هم بالدوائر الإنجيلية المتطرفة والصهيونية، فقد تم الدفع بهن/ هم قدما إلى واجهة التيار السائد بحيث أصبح هذا الاعتراف بهن/ بهم المصدر الرئيسى لمصداقيتهن/ هم. ولا تعتبر هذه العملية علاقة طفيلية بأية حال. فعلى حين أن سلطان وجبرييل ودرويش طفيليات يقتتن على بغض الأمريكيين للإسلام وحنقهم على المسلمين إلا أن الإعلام الأمريكى والتنظيمات السياسية والمجموعات الدينية بالولايات المتحدة قد استخدمتهن بصفتهن مُطّلعات على بواطن الأمور وحولتهن إلى أدلة تعمل على تحويل الإسلاموفوبيا إلى ظاهرة اجتماعية وثقافية، هذا علاوة على أن ما تقلنه وتكتبنه ضد الإسلام أصبح الأساس الوطيد الذى قامت عليه العسكرة الأمريكية. فى عام ٢٠٠٦، اختارت تايمز مجازين، بأسلوب غير مسئول، وفاء سلطان واحدة من بين الشخصيات المائة الأقوى تأثيرا حيث إن «شكيمتها وموهبتها ونموذجها الأخلاقى يجعلها قادرة على تغيير العالم، وهذا ما هو حادث فعلاً». لدى نقاشنا لإيان هيرسى علي، سنرى كيف أن قائمة تايم مجازين للشخصيات المائة الأكثر تأثيرا ظلت باتساق تُعلى من شأن دعاة الإسلاموفوبيا لمستويات من الصدقية لم تكن متاحة من قبل. بيد أن مسار المخبرات المحليات للشهرة والمجد لا يقتضى أبدا أية مؤهلات أو

خبرة أو إنجازات. لا تحمل سلطان، مثل درويش أية درجة جامعية متقدمة فى مجال علم النفس أو العلوم السياسية أو الدراسات الدينية أو الأنثروبولوجي. وفيما أنها تزعم أنها حاصلة على درجة جامعية فى علم النفس، فليس لديها ما يثبت أن لديها أية خبرة إكلينيكية أو أنها مارست المهنة فى سوريا، وطنها الأصلي.

فى واقع الأمر، فإن الصف الثانى من المخبرات المحليات من أمثال جبرييل ودرويش يعتمدن فى وجودهن على دعم المحافظين الجدد، والتنظيمات المسيحية الصهيونية، والمجموعات السياسية ومراكز الأبحاث والشبكات الإعلامية بالولايات المتحدة، حيث إنهن مدينات بكل شهرة أو «مجد» حصلن عليه إلى تلك الشبكة، وما تتمتع به هذه المجموعات من نفوذ على إعلام التيار السائد الأمريكي، وعلى التنظيمات السياسية، وتلك علاقة تكافلية وإن لم تكن متسقة. تعتمد تنظيمات ونشطاء الإسلاموفوبيا من أمثال «فريدوم سنتر» الذى يديره هوروويتز على الأصوات المحلية لتعزيز رواياتهم وإثباتها، وتزويد الجماهير الأمريكية من الراغبين بأكثر الشهادات والأقوال تطرفا عن الإسلام والمسلمين، والتى يعمل مصادرها المحلية على عدم اعتبارها «عنصرية» كما لابد وأن يكون الحال لو أن مصدرها غير محلي. وفى واقع الأمر، فقد ظلت درويش وجبرييل وسلطان أحد الملامح الثابتة فى المناسبة السنوية التى يقيمها هوروويتز بعنوان «أسبوع الوعى بالفاشية الإسلامية». وبدورهن، تعتمد تلك الأرزقيات المدعيات على مجموعات الطلبة اليمينيين، وتجمعات المسيحيين الإنجيليين، والمنظمات الصهيونية المتعصبة كوسائل لكسب معاشهن.

هنا تدخل قائمة A للدعاية: الضحايا الأبطال / البطلات

على الرغم مما حققته سلطان ودرويش وجبرييل من إنجازات فى أوساط مجموعات المصالح الموالية لإسرائيل واليمينية، إلا أنهن مازلن من الهواة بحيث لا يستطعن إخفاء انتهازيتهن بدرجة كافية مقارنة بغيرهن من المخبرات المحليات اللاتى حققن نجاحات هائلة على المستوى الإعلامى من أمثال أيان هيرسى على وإرشاد منجي. وعلى حين أن هيرسى على ومنجي، ومثل نظيراتهن فى القائمة B لا يملكن مؤهلات

علمية أو أكاديمية تمكنهن من التعليق المرجعي على الإسلام، فقد تمكنت كلتاهما من اكتساب صيت كناشطات وأكاديميات بناء على مزاعمهما عن اطلاعهما على بواطن الأمور في العالم الإسلامي بحيث وصلتا إلى عمق الأعماق بين جماهير التيار السائد وحققتا «مصداقية» كبيرة. يرجع هذا جزئيا إلى فطنتهما حيث إنهما لم تتحالفا بشكل حصري مع المنظمات الإنجيلية مثلما فعلت درويش وجبرييل. أفادت هيرسى على (الصومالية) ومنجى (الكندية التى ولدت فى أوغندا من أصول مصرية وجنوب أسيوية، حسبما تزعم) من سمار بشرتهما وجانبيتهما فى الصور التى تبدوان فيها كثائرتين من أراضٍ قصية تتصرفان وكأنما هما نبيتان ونذيرتان تحذران الجماهير من أخطار الإسلام والمسلمين فى وقت تسعى فيه أمريكا البيضاء للعثور على أوجه سمراء تثبت صحة اعتقاداتها العنصرية وتروج لها.

تحقق هيرسى على ومنجى نجاحات بأساليب لا تملك القائمة B سوى تمنّيها. تخفيان جعجعتهما ورطانتهما فى الهجوم على الإسلام والمسلمين فى هيئة توجهات نسوية «ناقدة للذات» وتتبنيان رواية تتحدث لصالح المسلمين وضد الإسلام، فيما لا يجد إعلام التيار السائد أية غضاضة فى تجاهل تناقضاتهما. وجدت الرواية التى تقمصتا فيها دور المدافعات عن تحرير المسلمين ضد طغيان دينهم أرضا خصبة فى شمال أمريكا وأوروبا ما بعد ٩/١١ حيث كان قد تم إعادة ترتيب الخطط السياسية وتسخير الموارد فى تلك البلاد بالكامل من أجل شن «الحرب على الإرهاب». يوضح تظاهرهما بالولاء لارتباطاتهما «الليبرالية» المبكرة – هذا على الرغم من تبنيهما لرواية اليمين حول المهاجرين والمسلمين بالخارج – افتقادهما للنزاهة بدرجة أكبر. أيضا، فإن تقمصهما لشخصية كاسندرا Cassandra[1] غذّى رغبة الجماهير فى العثور على «ضحايا للإسلام من بين معتنقيه لتبرير «ثأر» حكوماتهم من المسلمين، فى الداخل والخارج، والذين كانوا يعتبرونهم مسئولين عن الهجمات على واشنطون ونيويورك.

(١) نبية إغريقية أسطورية تنبأت بشرور مستطيرة كانت علي وشك أن تحل بقومها ولم يصدقها أحد حتي فوات الأوان [الترجمة].

obeikandi.com

وفى الواقع فإن هيرسى على ومنجى تعلنان بصراحة، بل وبأسلوب هستيري، أن عليهما «إيقاظ الغربيين» من أوهامهم الرومانسية بأن الإسلام دين سلام وتسامح. تجد مزاعمهما وهجماتهما قبولا سهلا لدى الجماهير فى الغرب وتغذى دافعهم للثأر من أحداث ٩/١١، حيث إن هيرسى على ومنجى لا تفتآن تؤكدان أن تلك الهجمات لم يرتكبها «مجانين مسلمون هامشيون، بل إن ذلك العنف هو من سمات الإسلام الأصيلة». بهذا، فهما تتبعان خطاب صِدَام الحضارات الذى ابتدعه لويس ثم اكتسب شعبية عارمة بعد كتاب هنتنجتون، حيث تصران على أنها معركة بين حضارتين. وبأسلوب يستدعى معه مبدأ چورج دبليو بوش «إما معنا أو ضدنا» فإنهما ترسمان خطا واضحا بين «الحضارتين»، و بهذا تُجيبان بوضوح وبصفتهما امرأتين سمراوين على سؤال منجي: «أى حضارة يجب أن أمنحها ولائي؟».

لا تخفى هؤلاء المخبرات المحليات انتهازيتهن. مثلا، تعترف هيرسى على فى سيرتها الذاتية التى تمجد فيها نفسها بأنها انشقت على حزب العمال الهولندى الذى منحها الإرشاد والدعم التعليمى وفرصة العمل حينما كانت تسعى للجوء السياسى بهولندا لتنضم إلى منافسه اليمينى VVD وركبت موجة المشاعر المعادية للمهاجرين والمسلمين. عقدت هيرسى على مع حزب VVD العنصرى اتفاقية تخدم مصالحهما معا بأن تكون هى مرشحة الحزب فى الانتخابات البرلمانية وأن يتركز برنامجها على معاداة الهجرة والمهاجرين. فيما بعد، حدثت مفارقة وأخذت العدالة مجراها حينما أُجبرت هيرسى على على الاستقالة من عضوية البرلمان بعيد انتخابها لأنها وُجدت مذنبة بارتكاب إحدى التهم التى كانت توجهها إلى المهاجرين فى حملتها عليهم، إذ اكتُشف أنها زوّرت الأسباب التى من أجلها هاجرت إلى هولندا وجعلتها مؤهّلة لحق اللجوء السياسي، حيث إنها كذبت على السلطات حول الدوافع التى جعلتها تترك وطنها الصومال. نتج عن هذه الفضيحة سقوط حكومة VVD فيما بعد وحرمان هيرسى علي، مؤقتا، من المواطنة الهولندية. لكنها، وبأسلوب انتهازى كلاسيكي، كانت قد قامت بترتيب استراتيجية للخروج فيما كانت مازالت عضوا بالبرلمان،

وتركت هولندا «الحبيبة» لتقبل منصبا بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت فى واشنطون دى سي. وفى نفس الوقت، ظلت الترجمة الإنجليزية لكتابها «الكافرة Infidel» على قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعا لأسابيع عدة.

وعلى الرغم من أن مسار منجى للشهرة لم يكن مثيرا كنظيرتها هيرسى على إلا أنه لا يقل عنها من حيث المهارة والانتهازية. ومثل هيرسى علي، فقد استخدمت ذخيرتها كامرأة مسلمة، بل وأيضا كامرأة مثلية مسلمة، كى تحول شخصيتها العامة التى تقمصتها من مضيفة من الدرجة الثانية فى برنامج حوارى للمثليين بإحدى القنوات الفضائية الكندية، إلى «عالمة» دولية فى شئون الإسلام. قذف بها كتابها «مشكلة الإسلام» الذى حاز شعبية كبيرة إلى آفاق رحبية فى الحياة السياسية والإعلامية الكندية تبعد مسافات كبيرة عن وظيفتها الباهتة فى التليفزيون الكندي. أكثر ما يثير المخاوف بشأن منجى هو السرعة الفائقة التى أصبحت بها رطانتها المبتذلة وحياتها الوظيفية الانتهازية جزءا من التيار السائد. وعلى الرغم من أنها تسمى نفسها «أكاديمية» مثقفة إلا أنها لا تحمل أية درجة جامعية متقدمة تؤهلها للحديث كمرجعية عن الإسلام والنساء والثقافة الإسلامية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكنت من التسلل إلى جهات شبه أكاديمية مثل «المؤسسة الأوروبية للديموقراطية» و«مشروع الشجاعة الأخلاقية» بجامعة نيويورك ذى الارتباطات الملتبسة بمركز أبحاث القيادات للفعل الإيجابى والذى يقع في كلية الدراسات العليا للخدمة العامة التى أنشأها إف واجنر حيث تعمل منجى أستاذا زائرا. بيد أنه، تظل طبيعة «مشروع الشجاعة».. وعلاقة منجى بجامعة نيويورك، وسؤال ما إن كانت مقيدة بكشف الرواتب بالجامعة، ومدى إسهامات الجامعة فى أنشطة المشروع.. إلخ غامضة عن عمد، فيما تظل مسيرة منجى الوظيفية نموذجا للمهارة فى التكيف والتشكل والدعاية المبتذلة لنفسها.

لا يتميز كتاب منجى «مشكلة الإسلام» أو كتاب هيرسى على «الكافرة» بأية بصيرة أو بلاغة أسلوبية أو تحليل إبداعي، بل العكس، فلم تفعلا سوى تبنى أطروحات برنارد لويس وفريد زكريا ونماذجهما المعيارية. بيد أن تفشى الإسلاموفوبيا فى جميع

أوساط الطيف السياسى فى كندا وأمريكا بعد ٩/١١ دفع بهما إلى آفاق الشهرة وتحديدا لأنهما رددتا، كنساء مسلمات، ما ظل لويس وزكريا يقولانه، بل إن موجة الإسلاموفوبيا كانت من القوة بدرجة أكسبتهما شيوعا إعلاميا فى برنامج أوبراه، وفى التايم مجازين التى اختارت هيرسى على إحدى أكثر الشخصيات تأثيرا عن عام ٢٠٠٥، هذا على الرغم من التهم التى وجهت إليها فى هولندا وحرمانها من عضويتها بالبرلمان. وعلى الرغم من أن دعايتهما الفجة وتحريضهما على كراهية المسلمين قد فقدا بعض الزخم فى زمن إمبراطورية أوباما الأكثر نعومة، تظل هيرسى على ومنجى تسهمان بانتظام فى مراجعات الكتب وكتابات الرأى فى صحف تزعم الموضوعية مثل الإنترناشونال هِرالد تريبيون والنيويورك تايمز.

وبالتقابل مع لويس وزكريا، تزعم هاتان المرأتان، زوراً، إتقانهما للغة العربية هذا على الرغم من أن أية قراءة عابرة لما تكتبانه تكشف عن عدم إلمامهما بأساسيات اللغة حيث إنهما حينما تُحيلان إلى العربية فى كتبهما نتبين أخطاء نحوية ولفظية مُزرية. يعنى هذا عدم قدرتهما على فهم المصادر «المحلية» التى تحيلان القارئ إليها بالرغم من مزاعمهما أنهما خبيرتان فى مواضيع كتابتهما. يفضح هذا سوء النية والأجندة السياسية التى تكمن فى جوهر كتابتهما، بل وأيضا أجندة الوسائط الإعلامية التى تنشر لهما والتى لابد وأن بإمكانها استشارة مرجعيات مُلمّة بالموضوع.

علاوة على هذا، لا تحوى كتابات تلك المرأتين أية بصيرة عميقة أو معقدة. تحاول هيرسى على متعثرة تبنى لهجة تأملية وقورة تخفى بها روايتها التنبُّئية المنذرة: «حينما يقول الناس إن قيم الإسلام هى التراحم والتسامح والحرية أنظُر إلى الواقع، إلى الثقافات والحكومات الموجودة، وأكتشف أنها ببساطة ليست كذلك، ثم تمضى تقول «يتقبل الناس فى الغرب مثل هذه الأشياء بسذاجة خشية اتهامهم بالعنصرية». وانتها بصيرتها البطولية فى ٢٠٠١ حينما - كما تقول - «فُتح المصراع فى خلفية عقلى حيث تدفقت جميع أفكارى المتنافرة، وفَتَحت عقلى بعد ٩/١١، ورفض الانغلاق مرة أخري». وبالتقابل، نجد أسلوب منجى الخطابى يتميز بالحميمية والتعالى فى

أن. فإلي جانب وعظها المسلمين وإهانتهم بأسلوبها الذى يبدو عفويا بل ومسترخيا، فإنها لا تعتمد على البصيرة النقدية، أو سعة الاطلاع والتحليل بقدر ما تعتمد على التعبيرات الصبيانية الدارجة.

ورغم اختلاف تكتيكاتهما الخطابية، فإن هيرسى على ومنجى تتشاركان فى نهج يرُسى النموذج المعيارى لكتابات المخبرات المحليات: يستمدان مرجعيتهما للتحدث من مجرد «صدقية» كونهما مسلمتين. من ثم، تُعتبران نمطا لكل تلك الظواهر والرموز: تقوم المجموعة المهيمنة باختيارهما وتبنيهما والترويج لهما على أساس استعدادهما للأداء بما يتوافق مع احتياجات المجموعة – فى هذه الحالة حربان على بلدين مسلمين، وحرب ثالثة ضد إيران يتم التصعيد بالكونجرس من أجل شنها. وفرت مواقفهما التى تدعيان أنها قويمة أخلاقياً، والتى تعمل على الحط من شأن المسلمين وبخاصة المسلمون العرب، لصناع السياسة والإعلاميين الأمريكيين مصدرا يستندون إليه فى آرائهم عن عدم الاتساق المطلق بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية.

الكتابات المبتذلة كحقائق: إرث لويس وزكريا والصحافة الصفراء:

لا تخرج كتابات هيرسى على ومنجى عن كونها نسخا مبتذلة مصغرة من كتابات لويس وزكريا من دون القشرة البراقة لحسن الاطلاع والذكاء والاتساق التى تتسم بها كتابات هذين الأخيرين. تستخدمات فى كتاباتهما سلسلة من الأساليب الخطابية التى تشكل واجهة نحيلة لأطروحاتهما ذات الطبيعة الكلية المعممة. ونظرا لعدم إمكان صمود المنطق المتلفلف لهجماتهما الدعائية نجدهما تعتمدان على منطق قياسى مشترك، ومجموعة مشتركة من الأساليب الخطابية: التعميمات، التفكير الاستنباطي، الإدانة لمجرد الارتباط، لوم الضحية، قلب الأدوار، الاستخدام الانتقائى للمصادر، وطمس القضايا وخلطها. تستخدمان ضمير المتكلم فى روايتهما لكنهما أيضا تملآن الثغرات الذاتية فى رواياتهما الشخصية بتحليل يبدو موضوعيا ومرجعيا وأكاديميا مأخوذاً عن لويس وزكريا وأمثالهما. لم يوفر لويس وزكريا فقط «الحقائق» التى تستند إليها المخبرات المحليات، بل أيضا البنية المحددة بصرامة للخطابات العامة عن الإسلام، والثقافة الإسلامية والمسلمين.

يوفر منظور ضمير المتكلم قدرا من الحرية غير متاح لأمثال لويس وزكريا وتوماس فريدمان ودانييل پايپس. يعفى الصوت الذى يستخدم فى رواية السيرة الذاتية الحكايات «المونولوجية» غير المترابطة من التزامات الاستشهاد بالمصادر، أو الدقة التاريخية أو أية صرامة أكاديمية تعمل على إضفاء درجة من الموضوعية. مثلا، باستطاعة منجى أن تجزم باسم التلقائية وعدم «الرغبة» فى ذكر المصادر، أنه حينما «يضطلع العرب بوضع أجندة الإسلام فإنهم يوضحون بما لا يدع مجالا للشك الكيفية التى حل بها الترويع محل العقل فى الإسلام. وأنه مثلما غدا العقل العربى مرتبكا ومشوشا فكذلك غدا العقل الإسلامى. وعلى حين أن «حقوق النساء» فى الإسلام كانت صيحة حرب أطلقها لويس وزكريا، تسهم المخبرات المحليات من أمثال هيرسى على ومنجى بدرجة كبيرة فى الدعاية الهجومية ضد المسلمين والعرب فى تعليقاتهن على مواقفهم من الجندر وتوجهاتهم وممارساتهم الجنسية وتعتبر قضية الجندر من الخطابات القوية المعادية للإسلام لأنها تجد صدى من طرفى الطيف السياسى الأمريكى حيث يتوحد أنصار الليبراليين «التقدميين» مع نقضائهم من المحافظين الجدد والإنجيليين المتعصبين حول قضية النساء فى الإسلام، يجذبهم إليها تعصبهم العنصرى والديني.

ليس ثمة أية كتابات للتيار السائد تصور ممارسات المسلمين الجنسية على أنها غير سوية وشائنة بأكثر من كتابات هيرسى علي. فبحسب ما تقوله، يعانى المسلمون من فسوق وفساد ثقافة نبيهم، تلك الثقافة التى تقوم على التراتبية والإذعان، ومن ثم على التشيؤ الجنسى للنساء. يعيد المسلمون إنتاج تلك الثقافة التى عفا عليها الزمن والتى تميزها «الأخلاقيات الجنسية» الإسلامية القامعة، حيث لا تتعدى النساء كونهن من أملاك الذكور القيمين عليهن».

علاوة على ذلك، تقول هيرسى على إن الإسلام كـ «ثقافة شاملة» يتميز بالإحباط الجنسي، مما يؤدى إلى أن يكون كل رجل مسلم «مغتصِباً محتملاً»، لذا نجد العنف ضد الفتيات والنساء شأنا روتينيا متقبلا. تزعم فى كتبها «العذراء فى القفص»

و«الكافرة» و«البدوى الرحّال» أن الإسلام يجعل رجاله يماثلون التيوس [ذكور الماعز] حيث يجد الرجل من هؤلاء نفسه، وبأسلوب قسرى «يركب» الأنثى بمجرد أن يراها: «حينما يبصر الرجل المسلم امرأة سافرة يقوم على الفور بالوثوب عليها، حيث لا يجد الرجل المسلم أى سبب يجعله يتعلم التحكم فى النفس. حينما يرى الرجال المسلمون امرأة، لا يمكنهم التحكم فى شهواتهم، وما صغار الفتيات المسلمات سوى «ماعز- ضحايا سهلة» يغتصبهن «التيوس» من الرجال المسلمين المنحرفين.

تخبرنا هيرسى على أنه على الرغم من أن جميع الثقافات الإسلامية تشترك فى تلك «الأخلاقيات الجنسية» إلا أنها مستمدة أصلا من القيم العربية القبلية. ونظرا لما تضفيه عليها نشأتها فى ثقافة إسلامية من مرجعية، تستطيع هيرسى على توجيه الاتهامات النمطية المتداولة دونما مساءلة: «العالم الذهنى للإسلام هو انعكاس للركود الذى وقع فيه هذا الدين أسيرا بعد مولده ببضعة قرون» بل إنها تتعدى كل حدود تقول «وفقا لمعاييرنا الغربية فإن محمدا شخص منحرف وطاغية. بل إنه ضد حرية التعبير، وحقا فهو شخص حقير، نموذج لحكام الشرق الأوسط المصابين بجنون العظمة مثل صدام حسين والخمينى وأسامة بن لادن».

وباستخدامهما ضمير المتكلم تقدم كل من هيرسى على ومنجى شهادتهما على أن الانحرافات الجنسية للرجال المسلمين مصدرها الانحرافات المتأصلة فى الثقافة العربية المتخلفة، ويعتبر هذا تنويعا آخر على تحليل لويس وزكريا اللذين يذهبان إلى أن مشكلة الإسلام لا تكمن فى الدين نفسه بقدر ما تكمن فى ثقافة مُنشئيه الأوائل وقياداته من العرب وفى عقولهم. وبتبسيط شديد، ترى هيرسى على أن الإسلام يقوم على ثقافة الخضوع [الاستسلام] والتراتبية ومصدرها ثقافة العرب الصحراوية حيث يقوم عالمه الذهنى على علاقة استسلام المسلم لله وخضوعه له والتى هى نموذج لجميع العلاقات الاجتماعية حيث يخضع الرجل لله، والمرأة للرجل، والأطفال للنساء وغير المسلمين للمسلمين. من ثم، تقول هيرسى على إن بنية الإسلام هى بنية الثقافة العربية وانعكاس لما أصاب هذا الدين من تأسل وركود.

وفيما تتقمص هيرسى على شخصية العلمانية الراديكالية ومنجى الإصلاحية

المسلمة، تتبع كلتاهما ادعاءات لويس بأن الإسلام يعكس نقائص الثقافة المحلية المتخلفة التى نشأ فيها وعيوبها. تقول هيرسى فى كتابها الأول إن الأخلاقيات الجنسية المستمدة من القيم القبلية العربية تهيمن على الدين. وعلى النقيض لرؤية الباحثين والأكاديميين من غير المسلمين، تجزم بأن القرآن ما هو إلا نسخة عربية قبلية من الأحداث التاريخية وأنه أدى إلى نشر ثقافة وحشية متعصبة مُثبتة على التحكم فى النساء، والضراوة فى الحروب. وفى الواقع، فإن هيرسى على ومنجى تتجاهلان الحقائق التاريخية بأن الإسلام منح النساء حقوقا أنكرتها عليها الثقافة قبل الإسلامية بل والثقافة الأوربية حتى بعد ظهور الإسلام بقرون طويلة، وأن الحجاب مستورد من الثقافتين الساسانية والبيزنطية.

ومن الواضح أن أيا من هاتين «المطلعتين على بواطن الأمور» لم تقرأ الشعر الكلاسيكى ما قبل الإسلامى الذى يصور ما تمتعت به النساء أنذاك من حقوق مثل حق الاجتماعات والحركة والتعبير عن آرائها السياسية واختيار شركاء حياتها. لم تذكر أى منهما أن الثقافة العربية الإسلامية لم تؤد إلى ظهور ثقافة أحزمة العفة أو حرق الساحرات، أو أن الإسلام كدين لم يحرم النساء من إنشاء المساجد أو دخولها كما حرمتهن البروتستانتية والكاثوليكية من إنشاء الكنائس.

من المغالطات التاريخية الزعم بأن الرسول كان من أوائل دعاة التوجهات النسوية كما نعرفها الآن أو أن مقدم الإسلام عمل على تحرير نساء الجزيرة العربية فى القرن السابع بالمعنى الذى يسعى إليه النسويون الغربيون فى القرن الحادى والعشرين. بيد أن «المخبرات المحليات» المتحذلقات يرفضن الاعتراف بالأبحاث والدراسات الأكاديمية، التى تناقش أهمية النساء فى حياة الرسول بمن فيهن زوجته الأولى خديجة التى كانت سيدة أعمال تكبره بخمسة عشر عاما- أو الدور النشط الذى لعبته آخر زوجاته، السيدة عائشة. من المفارقات أن دعاة الإسلاموفوبيا الغربيين يستخدمون خطبة الرسول لعائشة وهى فى التاسعة من العمر ليجرمونه بدلا من أن يتحدثوا عن الدور السياسى والاجتماعى التكوينى المركزى الذى لعبته السيدة عائشة فى مجتمعه المسلم بسبب ما أوتيت من علم وما تمتعت به من مكانة.

تحكم «المخبرات المحليات» من أمثال هيرسى على على الخبراء المتخصصين بأنهم «محللون أغبياء بدرجة تثير الحنق وبخاصة هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مستعربين ولا يكادون يعرفون شيئا عن واقع العالم الإسلامي». وبالطبع، لا ينطبق هذا إلا حينما تُثبت الأبحاث الأكاديمية عدم صدقية مقولاتهن الخطابية الجازمة.

وفيما ترفض هؤلاء المدعيات الأبحاث والدراسات الأكاديمية الحديثة التى راجعها وعرضها أقران من قاموا بها ونظراؤهم، فإنهن يقبلن الدراسات الزائفة التى يستنبطها الخبراء «المحليون» مثل المدعو ابن الوراق الذى تمتلئ أعماله باستشهادات من القرآن ومن مصادر كلاسيكية، خارجة عن سياقها وبذلك - وبحسب المتخصصين فى الدراسات الإسلامية من المسلمين وغير المسلمين - تعمل على تحريف تلك المادة تماما وتسئ استخدامها من أجل خدمة الأهداف الأيديولوجية. لكن من الأمور الأكثر دلالة أن هؤلاء المدعيات، وفيما يشهّرن بمعظم الدراسات المعاصرة، نجدهن يلوّحن بأعمال سفهاء الأكاديميين والمرتزقة من الصهاينة اليمينيين من أمثال لويس وفريدمان وزكريا ودايفيد پرايس - چونز وبات يئور بصفتهم مصادر أكاديمية مصدّقة.

تتم شيطنة الرسول بأساليب لابد وأن ينظر إليها على أنها عمل فاضح مشين وغير مقبول إذا تعلق الأمر بالرموز الأكثر قداسة لأى دين آخر. يعمد مدعو العلم والمعرفة العنصريون هؤلاء إلى قلب ما قام به الرسول رأسا على عقب كى يضمر معنى نقيضاً لمقصد الرسول. يقال، مثلا، إن رسالته حظرت وأد الإناث وذلك لأنه كان يعشق صغار الفتيات. وإذا قيل إنه كان «سياسيا ممتازا محنكا» وإنه انفتح على اليهود ومدّ الأيدى لهم قيل إن تلك «الإيماءات المحببة» كانت مجرد حيل سياسية «لإبعاد الانتباه عن جانب الإسلام الخبيث الخفي». وبحسب هيرسى على ومنجي، فقد كان محمد النموذج الأصلى للرجل العربى الذى أضفى انحرافاته وسلطويته على الدين الذى جاء به. إضافة إلى هذا فهما يريانه «رجلا قاسيا تطلّب السلطة المطلقة ومنع نمو الإبداع بأن وضع قيودا على الخيال وقصره على المسموح به فقط»، وإلى جانب ميوله الجنسية ونزعاته الشخصية، فقد خلق الإسلام فى صورة ثقافته العربية

وكلاهما مستمد من «العقلية القبلية» أو، وكما تكرر منجى دائما «عقلية العرب الصحراوية».

تسببت هذه العقلية الصحراوية فى «زواء» العرب فى العصر الحديث حيث تطاردهم عدم قدرتهم على «إقامة مؤسسات ديموقراطية تحمى الحق فى الحرية الغربية وتضع القيم النسبية للمعرفة العلمية والحكمة الدينية موضع الممارسة».

تذكّرنا منجى فى تحليل استلهمته من لويس وزكريا، ومن دافيد برايس - جونز المستعرب البريطانى الذى ينتمى للمحافظين الجدد، والمستمد مباشرة من أعمال بات يائور التى تَبث كراهية العرب، تذكّرنا أن «الذهنية العربية قامت بتصنيع مفهوم أهل الذمة» الذى يثبت أن العرب فيما كانوا يقدرون مهارات الأقليات المسيحية واليهودية وذكاءهم ويستغلونهم، فقد كانوا فى ذات الوقت يشعرون بالغيرة والارتياب منهم، هذا على الرغم من اعتراف مرشدها لويس بأن اليهود ظلوا دائما يشعرون بالأمن فى العالم الإسلامى بأكثر مما يشعرونه فى الغرب. لكن الأسوأ من كل هذا بحسب منجي، هو أن عدم كفاءة العرب ودونيتهم لا تحتويها حدود جزيرتهم وثقافتهم المنغلقة فقط بل إنها انتشرت من خلال هيمنتهم على الإسلام. تزعم منجى أن هذه الذهنية العربية هى مصدر شرور الإسلام والتى غدت تغذيها الآن البترو دولارات: «أتقنت السعودية فن استعمار المسلمين» من ثم غدا المسلمون الآن فى جميع الأنحاء يعانون «ضربات سياط الصحراء» وفتونة «الثقافة العربية الإمبريالية»، ويُجبرون على الخضوع «للتخلف الأخلاقى المتوطن فقط فى سياق التاريخ العربي».

أنتجت أخطار تلك العقلية الواقع السياسى الكوكبى حيث نجد، على سبيل المثال أن «إسلام الصحراء قد شوّه واقع أفغانستان وقولبه فى هيئة الحكومة الدينية فى السعودية». يجعل هذا المزيج المؤلف من «عقلية الصحراء» التى هى جوهر الإسلام التقليدي، والجيوب العميقة من الوهابية، من الإسلام خطرا كوكبيا وذلك لأن المسلمين اليوم «ليسوا مجتمعا دوليا بقدر ما هم قبيلة عربية».

حينما يتعلق الأمر بربط التطرف الإسلامى المعاصر بثقافة التيار السائد العربية

لا نجد أى لبس لدى هيرسى على ومنجى حيث تقول الأخيرة بوضوح إن أسامة بن لادن، هو النتاج الطبيعى للثقافة العربية الإسلامية، ثم تتساءل بعبثية وابتذال «أهى مجرد صدفة أن يقضى بن لادن كل هذا الوقت فى الكهوف مثلما كان يفعل محمد فى خلواته التأملية، إن لاهوته [بن لادن] لاهوت قبلى يساوى بين الوحدة والتنميط، وكل ما يقدمه هو مزيد من ديكتاتورية الصحراء». الرسالة واضحة للجماهير العربية والأمريكية: إن مبررات «الحرب على الإرهاب ثقافية وحضارية.

الفشل والسياسات الارتكاسية:

بصفتهما «مخبرتين محليتين» توفر هيرسى على ومنجى بعدا جديدا، للآراء الجازمة التى تعترفان بأنهما اقتبستاها من لويس وزكريا وتطرحانها باستخدام ضمير المتكلم. وبصفتهما شاهدتين مزعومتين من الداخل، يصبح بإمكانهما سرد أصول كراهية المسلمين للغرب وملابساتها ودوافعها بصوت «مسلم» و«حقيقي» تتقبله الجماهير. ترويان قصة دونية ثقافية تعيق الثقافة العربية الإسلامية عن الاتساق مع الحداثة. ومن داخل إطار الثقافة الإسلامية، تمدنا الاثنتان بمشاهد تدعم ما يقال عن غباء المسلمين وتعصبهم، وميولهم الجنسية العدوانية والعنف الذى يمارسونه. وعلى حين أن هذه المشاهد تواكبها أحيانا أمثلة عابرة من تخلف المسلمين فى إفريقيا وجنوب آسيا، إلا أن بؤرة تركيز هيرسى على ومنجى هى المسلمون العرب. المقصود بالمشاهد والأمثلة هى أن تكون نظائر لعدم تكيف العرب والمسلمين مع المجتمع العالمى الحديث. بتعبير آخر، فإن سبب جهل المسلمين فى العالم الإسلامى هو تخلف الثقافة العربية، وأن أصول كل فشل اجتماعى وسياسى للمسلمين هى «الأخلاقيات الخانقة» الكامنة فى بنية العرب الأساسية».

وفى واقع الأمر فإن لويس يفسر التضمينات الكاملة لهذا الفراغ الأخلاقى فيقول «مازالت الذرية غير الشرعية للقومية العربية والاشتراكية العربية موجودة فى عدد من الدول الإسلامية التى حافظت على أسلوب حكم فاشي/ نازي/ وعلى تلقين تلك المبادئ الاستبدادية لمواطنيها. تتكرّر تلك الاتهامات وهذا المنطق فى جميع أعمال

دعاة الإسلاموفوبيا و«المخبرات المحليات» حيث نجد هيرسي على تقول إن مقاومة الإسلام تعني مقاومة النازية ومعاداة السامية وبالمثل، تتهم منجي الفلسطينيين بأن لهم ميولا نازية بل وبالتواطؤ في الهلوكوست، وتؤكد أن المبادئ النازية تلهم العرب وبخاصة معاداتهم للسامية، كما يروج العرب الأساطير والبروباجندا النازية في تصويرهم لإسرائيل والجنود الإسرائيليين.

وباستنادهما إلى لويس وزكريا، تؤكد هيرسي على ومنجي وأمثالهما أن النزوع الخطر للثقافة الإسلامية ليس صدفة تاريخية. ومن جانب آخر، يوضحن أن سجل الغرب البشع وما يحويه من حربين عالميتين، وإمبريالية واستعمار وأعمال القتل الجماعي والتطهير العرقي هو مجرد أمور عابرة في تاريخ من الالتزام المتسق بحقوق الإنسان والحرية والتعبير عن الذات، إذ إن الفرق بين الغرب والشرق الإسلامي هو أن التطرف والتعصب خصائص ثقافية ناجمة عن «إسلام الصحراء»، أي متأصلة في حضارة العرب المعاصرين عصر الأوسطية التوسعية الكارهة للنساء.

تنتهي منجي إلى أن القرآن «لا يعبر عن جهل شمولي فقط بل عن تخلف أخلاقي أيضا في سياق التاريخ العربي». تجتزئ فكرة أن العرب هم أصل تخلف المسلمين مباشرة من أعمال لويس الذي يقوم باختزال عقود من كتابات المستشرقين والصهاينة المعادين للعرب في روايته لما بعد الحرب الباردة. وفي واقع الأمر، فإن لويس يعتبر مسئولا عن بث فكرة أن العرب يسيطر عليهم هاجس الماضي الاستعماري كما أنهم يبالغون في تأثير الصهيونية ومن ثم، ينبغي عليهم «التخلي عن الشكوى والظهور بمظهر الضحايا»، بثها في أوساط التيار السائد وذلك بعد مقاله «أصول الحنق العربي» الذي أصدره في شكل كتاب بعنوان «أين الخطأ؟». هنا، تصبح الأصوات المحلية مثيرة ومؤثرة بخاصة حينما تؤكد على مقولات لويس وزكريا، حيث تتفق هيرسي على ومنجي على أن التطرف والتعصب والعنف وبغض النساء ليست نتاجا للفقر المنتشر في العالم الإسلامي. تقول هيرسي على ساخرة «إن إفريقيا هي القارة الأشد فقرا، ومع ذلك، لا يتسبب الفقر في الإرهاب» متجاهلة بذلك الوقائع التاريخية في أوغندا عيدي أمين، وليبريا تشارلس تايلور، وأعمال الإبادة العرقية التي ارتكبها

الهوتو فى حق التوتسى، ثم أعمال القمع برواندا فيما بعد الإبادة العرقية للتوتسى، والإرهاب الجنسى فى الكونغو، والبشاعات التى حدثت فى سييراليون.

إن خطابات الدونية الثقافية العربية/ الإسلامية، ورثاء الذات، وصدمة الحداثة وهاجس الإمبريالية، وكره النساء المتأصل فى تلك الثقافة هى خطابات استمدت بُناها تحديدا من أعمال لويس وزكريا. وبالمثل، تكرر هيرسى على ومنجى المزاعم القائلة بأن العرب والمسلمين يلقون باللوم على الاستعمار والفقر والتمييز العنصرى والصهيونية بدلا من النظر إلى الداخل والقيام بإصلاح ممارسات الإسلام أو رفضها. تذهب منجى إلى أبعد من ذلك فى دفاعها عن الولايات المتحدة بصفتها حامية حقوق الإنسان فى المنطقة وتصر على أن «أصول تعاسة المسلمين وبؤسهم لا تكمن فى إسرائيل أو أمريكا». نجد أن المقولات التى توردها للتقليل من شأن مظالم العرب والمسلمين وشكاواهم المشروعة منتحلة من كتابات أمثال لويس ودانييل بايبس، بيد أنها حينما تقول بها نساء محليات، سرعان ما يتلقفها «الليبراليون» و«التقدميون» الذين يؤيدون الحروب على المسلمين. مثلا، يكيل كريستوفر هيتشتز النجم الإعلامى والذى تأثرت به الدوائر الثقافية الجمهورية والديموقراطية، يكيل المديح لمنجى وهيرسى على بصفتهما «أصواتا هادئة عقلانية» فى الحرب على الإرهاب.

يشعر المرء بالصدمة لدى قراءته لمنجى وهيرسى على وذلك بسبب درجة العنصرية الصريحة التى تميز تحليلاتهما، حيث تبدى المرأتان توجهات تكاد تكون مَرَضية فى تجاهلهما الحقائق الواقعة وإنكارها، ومعها كل المتون البحثية والأكاديمية الموجودة، وأيضا بسبب تعميماتهن الفجة الناجمة عن تضليل مقصود أو عما يشبه الجنون. بيد أنهما ليستا المشكلة. بل المشكلة تتمثل فى حقيقة أن مزاعمهما يتلقفها التيار الرئيسى ويُعلى من شأنها بصفتها تحليلات جادة. وفى واقع الأمر فإن قيمة هيرسى على ومنجى الحقيقية لدى تيار الإسلاموفوبيا السائد هو أن أسلوب الصحافة الصفراء الذى تستخدمانه كأصوات محلية مطلقة يجد قبولا سهلا من الجمهور الجاهل بأكثر مما يجده الذين ينقدون الغرب على أسس من التاريخ والواقع. تقوم عملية جعل الإسلاموفوبيا جزءا من التيار السائد فى عصر العولمة على أساس التجاهل الضرورى لسنوات عديدة من الأبحاث النظرية والإمبريقية التى بينت كيف

أن المسلمين العرب وغير العرب قد أصبحوا «الآخر» من خلال الأعمال الأدبية والبروباجندا والإجراءات السياسية وانخفاض التنمية الاقتصادية. تقول هيرسى على «يمضى الناس يُنظّرون للفقر وكيف يدفع الناس إلى الإرهاب؛ وللاستعمار والتوجهات الاستهلاكية، وثقافة البوب وتفسّخ الغرب، بيد أن هذا التنظير الزائف لا علاقة له بالواقع». ومن سوء الحظ، تتشارك هيرسى على ومنجى فى النهج الذى يذهب إلى إنكار السجل التاريخى والتنصل منه ومن الأبحاث الأكاديمية الصارمة.

من ثم، فإن نهج «أنا أعتقد إذن فهذا حقيقي» هو التكتيك الذى يشكل الأساس التحتى لكتابات جميع «المخبرات المحليات»- وذلك لعدم قدرتهن على تقديم ما هو أفضل. ليست مكانتهن كـ «محليات» هى التى تحوّل تفاهاتهن إلى حقائق وتحليلات، الأحرى هو أن الوسائط الإعلامية المحترمة للتيار الرئيسى هى التى تنشر أعمالهن وتروج لها وتتعاطى مع «نهجهن» بجدية أكثر مما تتعاطى به مع الأبحاث الأكاديمية الصارمة والوقائع والسجل التاريخى الذى يتم التوصل إليه نتيجة العمل الشاق من قبل الباحثين الغربيين أنفسهم.

تعمل مثقفات الصحافة الصفراء هؤلاء وسائل مباشرة أكثر مضاءً لنزع الصدقية عن عقود من الأبحاث التى تحدد أسباب الإسلام السياسى وتخلف التنمية السياسية والاقتصادية وتعزوها إلى فرض التنمية الرأسمالية على العالم اللاغربى وفى سياسات الحرب الباردة، والسياسات الخارجية والاقتصادية للولايات المتحدة وحلفائها وجرائم إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني.

تؤكد هيرسى على ومنجى بما لا يدع مجالا للشك على أن المظالم المشروعة للعالم الإسلامى والعربى وشكاواهم من الصهيونية والكلونيالية مثلا ما هى إلا ذرائع لتبرير تخلف العرب وسلطويتهم، وكما عبرت منجى فى دفاعها الوقح المهين عن التنميطات العنصرية بأن قالت إن الشعوب السمراء لا تستطيع توجيه اللوم إلى «البيض» و«اليهود» لتنميطهم جميع المسلمين على أنهم إرهابيون، إذ إن اللوم يقع على المسلمين العرب الذين يثبتون صحة هذه التنميطات. وبالمثل، تلقى هيرسى على

بمسئولية الفشل فى التقدم واللحاق بالحداثة على العالم العربى وتؤكد أن «أفضل أسلوب تتحرر به الثقافة الإسلامية من تخلفها هو توقفها عن لوم الآخرين على هذا التخلف». وبالطبع، فإن هذا الجزم ما هو إلا ترديد لما جاء بالجمل الأخيرة لمقال لويس «جذور حنق المسلمين» و«أين الخطأ؟» وأيضا لموضوع جميع المقالات التى كتبها دانييل بايبس فى هذا الصدد.

لا تستند أهمية أمثال هيرسى على ومنجى إلى محتوى أعمالهن الذى يفتقد أية بصيرة أكاديمية أو إمبريقية أو تحليلية وإلى التفكير السليم بمثل ما تفتقد حسن العرض والأداء الكتابي، بل إن هويتهن كنساء مسلمات وأوجههن الجذابة إعلامياً وقدرتهن على التحدث بالإنجليزية هى التى تشجع الكتّاب الأكفاء على اقتباس ما يُقلنه فى أعمال أكاديمية وصحفية زائفة. الأهم من هذا كله هو الترويج لهن والإعلاء من شأنهن كوسيلة لإضفاء نغمة أخلاقية على الآراء العنصرية للإعلاميين وصناع السياسة الذين يصبح باستطاعتهم النطق بآراء نيوليبرالية مستبطنة من خلال أفواه «مسلمات حقيقيات» آراء تحمل الفكرة المضمرة بأن المذابح وأعمال الإبادة الجماعية التى ترتكب ضد الشعوب الإسلامية هى أمور مُبرّرة عادلة.

«الخضوع» فى الإسلام مقابل الجهاد الرأسمالي

تناقض لهجة الادعاء التى تتبناها هيرسى علي، ولهجة منجى المتعالية مقصدهما الذى يرمى إلى إذكاء نيران الإسلاموفوبيا فى أمريكا الشمالية وأوربا. لو وُجدت أية درجة من الإخلاص أو الأمانة فى أعمالهما لكان بإمكانهما بذل جهد طفيف لترك مجال لوجود ظلال من الفروق فى آرائهما عن العالمين العربى والإسلامي. كان بإمكانهما، ولو عرضياً، ذكر التاريخ الثرى والمتنوع للحركات النسوية ولنشطاء/ ناشطات حقوق المرأة فى العالم الإسلامي، بدءا من قاسم أمين وهدى شعراوى ونوال السعداوى بمصر إلى ملالاى جويا ومرشحة الرئاسة مسعودة جلال بأفغانستان. وإن كانت منجى وهيرسى على تُلِمان بالعربية كما تزعمان، لأشارتا، ولو على سبيل المجاملة للنسويات/ النسويين العرب والمسلمين العلمانيين منهم والمتدينين. ولو أنهما

كما تزعمان مفكرتان ناقدتان تهتمان حقا بقضايا النساء فى العالم الإسلامي، لأمكنهما الاستعانة بعينات من التعليقات والافتتاحيات فى الوسائط الإعلامية المطبوعة والإلكترونية والناطقة بالإنجليزية والتى تكتبها نساء ناشطات مسلمات بارزات، وباحثات وأكاديميات ولأنصتتا إلي تلك التنويعة الهائلة الثرية من أصوات المسلمات بدلا من الاقتصار على سماع رطانتهما الرتيبة المملة. تفضح حقيقة أنهما ومثيلاتهما لا يطلعن على أنشطة النساء المسلمات العلمانيات التقدميات أو المتدينات ويشتبكن فى حوار معهن على الرغم من وجود ترجمات بالإنجليزية لأعمال الناشطات النسويات العربيات والإيرانيات والإفريقيات وجنوب الأسيويات – حقيقة أن هيرسى على ومنجى ومثيلاتهما لديهن أجندات لا مكان فيها للصرامة الفكرية، أو الثقافة، أو نصرة الحقيقة.

بتعبير آخر، إن تجاهل تنوع أصوات الرجال والنساء المختلفة فى الشرق الأوسط ليس أمرا عابرا أو من قبيل المصادفة. فعلى الرغم من كل أحاديثهن عن حقوق النساء، وكراهية الإسلام للنساء وظلمه لهن، إلا أن «المخبرات المحليات» ومثل نظرائهن من الأكاديميين المغرضين، والمنظِّرين المؤدلجين المأجورين هم جوهريا نيوليبراليون كارهون للنساء. فإلى جانب انتهازيتهم/ هن، فهم يضمرون كراهية رجعية للحركات التقدمية والنشطاء/ الناشطات والمفكرين/ المفكرات الذين يمارسون/ سن ما أسماه عبدالكبير الخطيبى «نقدا مزدوجا» بحيث يُسائل العرب بطريركية مجتمعاتهم وأيضا إمبريالية الغرب ورأسماليته فى آن. من ثم، فإن «المخبرات المحليات» تتجاهلن الأنشطة التقدمية للمسلمين والمسلمات بمثل ما تتجاهلن أنشطة المسلمات المُتدينات اللاتى يلقين الضوء على تناقضات ممارسات الغرب وتعريفاته. علاوة على ذلك، تعمد هيرسى على ومنجى ومثيلاتهن إلى طمس أية معلومات عن شبكات التكافل التى تقيمها التنظيمات النسوية الغربية والمسلمة، العلمانية والدينية، النسائية والذكورية، قبل ٩/١١ وبعده، على المستوى الدولى والمحلى فى أمريكا الشمالية وأوربا. تقوم هيرسى على ومنجي، بأكثر من غيرهن، بجدْلِ طمس المعلومات عن أنشطة النساء

المسلمات، وشيطنة جميع الثقافات الإسلامية، وإنكار حقوق الفلسطينيين مع ولعهما بالنيوليبرالية والفردانية والرأسمالية المطلقة. وفي هذا الصدد، فإن أعمال زكريا تؤطر تفكيرهما. تؤكدان في كتاباتهما على أن معتقداتهما السياسية الليبرالية، وبخاصة هيمنة الحريات المدنية، والفردانية وحرية إقامة المشاريع، كلها تتناقض مع «العقل» المسلم والذهنية «القبلية الصحراوية». تبين هيرسي وهي تردد برنامجها الانتخابي حينما كانت مرشحة عن حزب VVD الهولندي، في كتابها وأيضا في حوارات عديدة، أن السوق الحر هو السلاح الذي سيحوّل المهاجرين المسلمين إلى أفراد، والوسيلة التي تؤدي إلى تعريفهم بمفهوم الفردانية الغريب على «ذهنيتهم القبلية». ثم تذهب لتقول إنه وفقا للإسلام «ليس من الضروري أن ينمو الشخص ليصبح فردا متفردا حتى أن الكثيرين، والنساء بخاصة، لا يطورون أبدا إرادة فردية واضحة. عليك أن تستسلم، وهذا هو المعنى الحرْفي للفظ «إسلام». نجد أن مجاز الاستسلام يتكرر كثيرا في جميع أعمال هيرسي على ومنجي بصفته من الممارسات المهيمنة المتأصلة في بنية الإسلام الاجتماعية لبطريركية التراتبية، حيث يربي الوالدان المسلمان بناتهن ليصبحن فتيات طيعات مستسلمات.

ترى منجي أن الإسلام يعزز عادة الاستسلام دونما أي تفكير أو تمحيص وأن هذه الظاهرة هي نتاج «إسلام الصحراء» الذي تحذر من أنه آخذ في فرض نفسه على جنوب شرق آسيا مثلما حوّل الإسلام السعودي أفغانستان إلى دولة دينية مشوهة. وفيما أن عدد المسلمين في العالم يبلغ ١.٦ مليار نسمة منتشرين في جميع القارات ويتحدثون العديد من اللغات وينتمون إلى إثنيات كثيرة تتخطى حدود الطبقات والانتماءات السياسية، ولديهم ممارسون خبراء في مجالات علمية وتقنية وفنية مهنية، فإن منجي تمضي في تأكيدها بأن «المسلمين اليوم لا يشكلون مجتمعا دوليا بقدر ما هم قبيلة عربية». تعتقد منجي أن إسلام الصحراء هو ثقافة عربية وتتساءل «أيمكن فصل معايير الصحراء عن الإسلام؟» مؤكدة أن الإمبرياليين الثقافيين العرب قد فرضوا ثقافة الصحراء بقوة «السياط» على المسلمين في أنحاء

العالم وسعوا إلى تسيد اللغة العربية وهيمنتها، وأجبروهم على التوجه نحو مكة فى صلواتهم. ليست شتيمة منجى العنصرية للعرب مجرد أداة أسلوبية أو بلاغية بل إنها تشكل الفحوى الحصرى لأطروحات أعمالها بعامة.

تستخدم منجى وهيرسى مفهوم «العقلية» الصحراوية استخداما أيديولوجيا يضمن أن يُفهم المسلمون بصفتهم النقيض المطلق للغرب، وبخاصة فيما يتعلق بالقيمة الغربية الأساسية أى «الفردانية». وفى واقع الأمر فقد كانت منجى ماهرة فى ابتداعها «الشخصية» المستقلة التى تتقمصها والتى ترحب بالتوجهات الفردية وبالاختلاف، والتي، وكما تذكرنا باستمرار، تعكس جسارة «رحلتها كمنشقة على الإسلام». تكمن جذور «مشروع الشجاعة الأخلاقية» الذى تبنته منجى فى عصر أوباما، فى «عملية الاجتهاد» التى تبنتها فى عصر بوش والتى كانت تهدف إلى تحرير عقل المسلمين من ذهنية الصحراء العربية وتقتضى «وجود نظام رأسمالى تقوده نساء يراعين الله كوسيلة لبدء الإصلاح الليبرالى للإسلام». وبما أن المسلمين غير قادرين على إنجاز مثل هذا التغيير، فعلى الغرب أن يسعى كهدف أول، إلى أن «يستحث التغيير فى الإسلام من خلال دعم صاحبات المشاريع من النساء وتمكين عدد أكبر من المسلمات من أن يصبحن سيدات أعمال»؛ وفى هذا فإن منجى تنتحل حرفيا مزاعم زكريا الذى يذهب فيها إلى القول بأن وجود طبقة رجال/ سيدات أعمال حقة تقيم المشاريع ستكون أهم قوة مفردة تحدث تغييرا فى الشرق الأوسط.

تتضح الأهمية الأيديولوجية لكتابات «المخبرات المحليات» حينما نتبين كيف أن تحليلاتهن السطحية تؤدى إلى استنتاجات سياسية حتمية تتسق مع مصالح الإمبراطورية الأمريكية. يذهب استنتاجهن إلى أنه إذا كان العالم الإسلامى أسير الثقافة الإمبريالية العربية والقائمين عليها الذين يعملون على هيمنة الإسلام وتسيده، وليس أسير الحكومات العميلة التى تتقبلها الولايات المتحدة فى السلطة كأمر واقع، إذن تصبح المشكلة التى تواجه المسلمين الإصلاحيين والغرب النبيل واضحة: لا يستطيع المسلمون وحدهم تحرير أنفسهم سياسيا أو ثقافيا أو نفسيا، وإقامة الديموقراطية.

تكمن الحالة المنحطة للعالم العربي، وللعالم الإسلامى بمجمله فى «عدم قدرة المسلمين على إقامة مؤسسات ديموقراطية تحمى حق الأفراد فى الحرية وتضع القيم النسبية للمعرفة العلمية والحكمة الدينية فى المنظور الصحيح وتعمل على القضاء على التبعات الاجتماعية والنفسية الناجمة عن إخضاع النساء واستعبادهن»، ترى منجى أن «معايير الصحراء» هى المعايير الخبيثة الشريرة للعقل الإسلامي، وللمجتمع الإسلامى ونظام حكمه وثقافته.

تنصّب منجى وهيرسى على نفسيهما «مصلحتين» للإسلام، وتبينان بوضوح أن مهمتهما هى إثبات أن المسلمين «مذنبون» لتغاضيهم عن العنف المتأصل فى دينهم، ومذنبون للخداع والأكاذيب التى يروجونها عن دينهم وطبيعته الحقة.

استخدام القوة ضد النساء، ومن أجل النساء:
مسئولية المسلمين ومسئولية الغرب

يستخلص قراء منجى وهيرسى على استنتاجا واحدا مفاده أنه ينبغى تحرير المسلمات من مجتمعاتهن الإسلامية التى هى عبارة عن «مزيج من اللاعقلانية والخزعبلات» حيث تترسخ القسوة ويسود الظلم وعدم المساواة. وعلى حين تتخيل هيرسى على نفسها فيلسوفة وتتخيل منجى نفسها عالمة اجتماع ديني، تريان معا، وبأسلوب لا لبس فيه، أن «التحرير» يعنى «إصلاح» المجتمعات المسلمة من خلال الوسائل الاقتصادية والسياسية، بل والعسكرية إذا اقتضى الأمر. يتخذ ذلك الإلمام الأيديولوجى قالبا واقعيا لأنهما تصوران الحكومات المسلمة والجموع المسلمة بصفتها متواطئة فى وجود هذا الاعتماد المتبادل بين السلطوية وقمع النساء وخمول المسلمين وكسلهم. يتجسد خط التفكير هذا فى كتابات زكريا حيث يقول إنه إذا كان «العالم العربى هو النموذج الأمثل للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمان. فإن المعونات السخية التى تقدمها لها الولايات المتحدة تجعلها أكثر كسلاً وبلادة. لقد شجعت تلك الدخول التى لم يبذل فى سبيلها أى جهد الأنظمة شرق الأوسطية على ألا تتطلب الكثير من شعوبها، وبدورها، على ألا تعطيهم الكثير».

تغلّف «المخبرات المحليات» اللاتى ينتمين إلى التيار السائد بالإسلاموفوبيا الكامنة فى كتاباتهن بتحليلات أكاديميى التيار السائد من أمثال زكريا وكثير من أنداده فى مراكز الأبحاث بواشنطون ونيويورك. تتبنى منجى وهيرسى على خطابات التيار السائد المهيمنة وترددان الآراء الأيديولوجية الجازمة التى تبرر سياسة الولايات المتحدة الخارجية وسياسة مسئوليها؛ بل وتجعلها ضرورية. وبدفعهن قضايا النساء إلى المقدمة، تضيف المخبرات المحليات، فى أفضل الأحوال، مستوى من الصدقية. تلقّى كتبهن رواجا بدرجة أن يصبح باستطاعة صناع السياسة والسياسيين وجمهور القراء الأمريكيين إثبات شكوكهم بأن النساء المسلمات أسيرات «حبيسات الأقفاص» دونما حرية أو شخصية فردية مستقلة. فى برنامجها الوثائقى على PBS، بعنوان «العقيدة بدون خوف» تؤكد منجى أن «الوحدة تعنى لهن التماثل والنمطية»، و«التطابق يأتى فى المقدمة قبل التعبير الشخصي»، وأن النساء يشكلن الصف الأول حيث يطلب منهن التطابق، أى أن أعراف القرن السابع تستخدم للتحكم فى نساء القرن الحادى والعشرين لضمان امتثالهن. تروى هيرسى على نفس المشاعر من خلال قصتها الملفقة، حيث تبين موحية بالثقة من خلال استخدامها ضمير المتكلم، أن النساء فى المجتمعات المسلمة تمارَس عليهن الأساليب البوليسية من خلال الدول القامعة، بحيث ينتهى أمرهن بالتماهى مع المعتدين ويقمن بدورهن بممارسة الأساليب البوليسية مع أطفالهن.

لا تخوض هيرسى على ومنجى عميقا فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة بالشرق الأوسط، أو تناقشان التشريعات المحلية، أو المجتمع المدنى المحلي، أو مجموعات القوانين أو الثقافة السياسية فى أى بلد مسلم، بل إنهما، وكما رأينا، لا تكادان تكونان مؤهلتين للتعليق على مثل هذه الأمور. إننا وقد قلنا هذا يتضح أن عملهما سياسى محض، كما أنهما بدعوتهما إلى معالجة خارجية مباشرة لمشاكل الإسلام، تعملان أبواقاً دعائية للسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط التى يحركها الصهاينة. وباتباعهما خط لويس وفريدمان، تقومان بدعوة المجتمع الدولى

للتأكد من إجبار العالم الإسلامى على الارتقاء والعيش وفقا لقيم ما يسمى بالعالم المتحضر. تستشهد منجى بـ «خطاب مفتوح إلى أسامة بن لادن» الذى كتبه عزت مجيد، المليونير ورجل البر المستفز فى دورية ذا نيشن بعد ٩/١١ حيث نقد المسلمين لفشلهم كمجتمع مدنى وذلك من خلال عدم مواجهة «شياطيننا التاريخية والسياسية والاجتماعية التى تكمن داخلنا». تستخدم منجى هذا «الخطاب المفتوح» وثيقة تثبت بها أن المسلمين، فى بؤسهم وتخلفهم قد «تخلوا» عن مسئولياتهم. يعتبر استخدام منجى هذا مثالا على كيفية تعاطيها بانتقائية شديدة مع جميع مصادرها حيث تنتقى بعناية أسطرا من خارج سياقها لدعم ما تقوله. فى حالة «خطاب مفتوح» تتجاهل منجى كيف يذكِّر مجيد بن لادن أن الغالبية العظمى من المسلمين لا يلقون بالا إلى أقواله وإعلاناته ورسائله، وكيف أنه يقترح عليه أن يطور نظرة إلى العالم أكثر قوة وإيجابية وإقناعا عسكرياً وسياسيا واقتصاديا وثقافيا إن هو أراد أن يكون «ثوريا» ذا أهمية.

يذكرنا استدعاء منجى «المتعالي» لعدم تحمل المسلمين المسئولية باعتماد هيرسى على على أعمال توماس فريدمان كى تطرح رأيا مماثلا حيث تحيل إليه مباشرة حينما تطلب من المسلمين، وهى التى تتقمص شخصيته الداعية إلى تحررهم، أن يتبنوا نفس المعايير الأخلاقية السامية التى يتبناها الغربيون. تهاجم هيرسى على النسبية والتعددية الثقافية لأن ذلك يعمل على تنامى التعصب فى أوربا حيث إن المسلمين الذين يعيشون هناك يفرضون على أنفسهم العزلة. لذا، فهى ترى أن على البلدان الغربية أن تعوض عن ترسيخها للتسامح والتساهل بأن تفرض معايير أخلاقية حضارية على العالم الإسلامي.

يعتبر هذا التحليل تسليما جدلياً بإجابة عن سؤال أورده زكريا فى كتابه، وظل لويس يثيره بكيدية منذ عاصفة الصحراء: ماذا نفعل إزاء دين يهدد بتصدير فساده الأخلاقي ونشر عدوى أمراضه الاجتماعية المتوارثة (إما من خلال الإرهاب أو السياسة الخارجية أو الهجرة)؟ كيف يمكن للغرب أن يفرض على الإسلام، والعالم

الإسلامى والمسلمين القدر القليل الأساسى من السلوكيات الأخلاقية التى تتشارك فيها الأمم المتحدة؟ كيف نُجرِّد المجتمعات المسلمة من «معايير الصحراء» ونخلصهم منها؟ إذا لم نوقفها، ستؤثر مشاكل الإسلام وأمراضه (كره النساء، السلطوية البطريركية، معاداة السامية.. إلخ) فى العالم الغربى وتنتقل إليه. إن تخلف الإسلام ليس من بقايا الماضى غير المؤذية التى تُتَداول تداولا حميدا فى العالم المتخلف، بل إن ممارسات الإسلام ومعتقداته هى التهديد الأساسى لأسلوب الحياة الغربى والأمريكي، وستنتشر عدواها فى أنحاء العالم من خلال الهجرات غير المكبوحة والتعددية المُضلِّلة، بل وحتى التحول إلى الإسلام. تؤكد منجى من خلال كتاباتها فى عهد أوباما بوضوح وحزم على خطر الإسلام القائم فعلاً على العالم المتحضر. وفى هذا الصدد تشارك هيرسى على ومنجى بأصواتهما التنبئية المنذرة بمنظور محلى فى حملة ترويج التهديدات السياسية التى يمثلها الإسلام للغرب، وتسهمان فى النوع الأدبى الفرعى المتنامى من كتابات الإسلاموفوبيا.

وعلى الرغم مما تتسم به كتابتهما من حذلقة وتلقلف وعدوانية، بل وعدم فهم لدين الإسلام، فإنهما توفران تفسيرات سهلة الاستيعاب للتيار السائد الذى يخفى تحيزه بحذر ويتوق إلى أسباب يعفى بها نفسه من الإجابة عن سؤال «لماذا يكرهوننا؟». وفيما أنهما لا تتحدثان عن التغير الديموقراطى أو الديموقراطيات الدستورية، فإنهما تتحدثان جازمتين عن استخدام القوة كأسلوب ضرورى لتغيير الإسلام والرجال المسلمين. وعلى حين يرى زكريا أن النيوليبرالية هى الوسيلة التى من خلالها ستتحرر النساء المسلمات أنفسهن سياسيا واجتماعيا واقتصاديا من هذا الدين البدائى العتيق، يقدم لويس لهن، متبعا نهج رفائيل بطى الإرشادات الأيديولوجية لهذا التحرير، والتى يختزلها فى أن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة.

ومذكِّرة إيانا بدعوة زكريا للاستعانة بالديموقراطيات اللاليبرالية، تدعو منجى الحكومات الغربية إلى الاعتماد على الحكومات السلطوية التى تعمل نيابة عنها لمداهمة الأصوليين واستخدام القوة ضدهم. نجدها، وعلى الرغم من كل حديثها عن

القيم الليبرالية تدعو بحماس إلى «استخدام قانون الطوارئ كى تتمكن الشرطة من مداهمة الفتوات والبلطجية الأصوليين وسحقهم». ترى هيرسي علي ومنجي، وبالتقابل مع آراء بعض مرشديهما من المحافظين الجدد الذين يحوزون أعظم درجات الإعجاب منهما، أن على واشنطون استخدام ثقلها لدى حلفائها العرب من أجل قمع الاختلاف، وسحق الإسلام السياسي، والقضاء على التوجهات المعادية لأمريكا، فيما تقوم أيضا بإدخال إصلاحات «السوق الحر» النيوليبرالية واللبرلة السياسية إلى المنطقة، بل والتطبيع مع إسرائيل إن أمكن. من ثم فقد ساعدت هيرسي على ومنجي بهذا على تيسير العثور على ما يستند إليه لتبرير سياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وفى واقع الأمر، فإن بساطة مقولاتهما و«موثوقيتها» الظاهرية حيث إنها صادرة عن مصادر «داخلية» مطلعة أضفت مزيدا من «المصداقية» على الخطابات حول الإسلام والشرق الأوسط والنساء والمجتمع المدنى التى كان يروجها زكريا ولويس فى أوساط التيار السائد من الشبكة الإعلامية، والمأجورين السياسيين، ومراكز الأبحاث ومجموعات المصالح. تروج الأسس الأيديولوجية لتلك الخطابات منطق الإمبراطورية، وبخاصة منطق «التحرير» من خلال الاستعمار، والحروب من أجل السلام وتحرير النساء بواسطة دعم حكام تابعين شبه إقطاعيين أو مساندة الأحزاب الدينية. مازالت تلك الأسس والدعامات الأيديولوجية حية نشطة فى ظل السياسة الخارجية لأوباما مثلما كانت من قبل.

استيعاب الحركات النسوية وحروب تحرير (النساء):

تميز العقد الأول من القرن الحادى والعشرين بالعودة إلى خطاب شن الحروب ضد «أعداء» أمريكا ليس فقط من قبل المُنظّرين والإعلام والمستشارين السياسيين بل أيضا من قبل كل أفرع الحكومة على المستوى الفدرالى ومستوى الولايات المتحدة، والمستوى المحلي. ليست استراتيجية الحوافز والعقوبات، والعصيّ والجزر، حصرا على سنوات بوش بل إنها تميز أيضا أسلوب «القوة الذكية» المخملى الذى يتبعه باراك أوباما. ليس ثمة اختلافات تُذكر فى السياسة الداخلية والخارجية بين العهدين إذا استثنينا الدولة الأمنية لجورج بوش ودولة أوباما «الاشتراكية». وعلى حين أنه لم يكن ثمة الكثير من الحديث عن «الاشتباك» أثناء سنوات بوش مع شن الحروب

وتوسعها، تميز بيت أوباما الأبيض بكثرة الحديث عن الاشتباك مع عدم اتخاذ سوى قليل من الإجراءات. وفى الواقع، فإنه بالإمكان القول إن بوش هاجم التعصب الذى تبدّى أثناء فضيحة ميناء دبى العالمى عام ٢٠٠٦ باتساق أكثر من ذاك الذى تبناه أوباما للدفاع عن حق المسلمين فى إقامة مركز إسلامى على مسافة غير ملاصقة لموقع أحداث ٩/١١. مازال أوباما مستمرا فى إرث وسْم الحكومات الأجنبية التى ترفض التعاون مع الأجندة النيوليبرالية الأورو/أمريكية متهما إياها بأنها «أنظمة مارقة» علاوة على لجوئه لاستدعاء شبح العنف الإسلامى من أجل تنفيذ أجندته السياسية الداخلية والدولية. من ثم، يستخدم التيار السائد الأمريكى رواية منجى وهيرسى على لتبرير الإسلاموفوبيا الثقافية التى ينتهجها أوباما ودعم تدخل حكومته العسكرى والسياسى والاقتصادى المستدام. وهنا تلعب المخبرات المحليات دورا مزدوجا إذ إنهن يشجعن الغرب على انتهاج سياسات فاعلة تجبر المسلمين على العيش وفقاً للمعايير «المتحضرة» من ناحية، وأيضا يعملن كمشجعات «محليات» سمراوات للحروب التى تشن على العرب والمسلمين ويبررنها، كما فعل لويس، بصفتها ضرورة أخلاقية. ولأن هذه الظاهرة هى تشكيل أيديولوجى تغذيه الانتهازية، نجدها تمتد عبر الإدارات وينتهجها جميع الرؤساء.

ولو بدا هذا الجزم مفرطاً فى تجريده، فما علينا إلا النظر للدور المهم الذى لعبته «المخبرات المحليات» فى الحملة الإعلامية المكثفة لتبرير الحرب على العراق ناهيك عن الإنذارات المضللة المبتذلة مثل حرق نسخ القرآن أو مساجد مانهاتن، أو شائعات تفجيرات الكريسماس.. إلخ.

وفيما بعث الحديث المزدوج للبيت الأبيض ووزارة الخارجية عن المسلمين الأشرار بالتقابل مع المسلمين الأخيار برسائل مختلطة عن «الحرب على الإرهاب»، عملت أمثال هيرسى على ومنجى على التأكيد بما لا يدع مجالا للشك على أن ٩/١١ هى بمثابة بيرل هاربور وذلك لتبرير قيام حرب طويلة - متوقعة ضد الأشرار. لكن هذه الحرب على الإرهاب، وعلى الرغم من تراجع بوش اللفظى وتأرجحاته، هى حرب على «الإرهاب الإسلامي»، الإرهاب المتأصل فى الدين ذاته. تعترف هيرسى على قائلة إنه فى ٩/١١ «أُعلنت الحرب باسم الإسلام، أى عقيدتي، والآن على الاختيار: على أى

جاب أقف؟ هل نساند إمبريالية الإسلام وفلسفة أهل الذمة حيث يحتل غير المسلمين منزلة أدنى من المسلمين، وحرب ذلك الدين عصر الأوسطية على النساء التى أصبحت حربا ضد الغرب والحضارة بعامة؟ من ثم، فهى ترى أى تدخل فى الشرق الأوسط مبررا وذلك «لأننا فعلا فى حالة حرب، ليس ضد التأسلم فقط، بل ضد الإسلام ذاته». لا ترى أن سبب الحرب يكمن فى الغرب الذى توجد قواته، بالفعل، على الأرض فى بلدان إسلامية عديدة، بل لأن الحرب قد «أعلِنت باسم الإسلام ضد الحضارة الغربية».

وفى واقع الأمر فقد كانت مسألة حقوق النساء فى الجبهة الأمامية لغزو أفغانستان ومُكوّنا رئيسيا فى احتلال العراق، وتظل هى الحال فى ظل إدارة أوباما. مازال البعض يتذكر أن لورا بوش لعبت دوراً قياديا فى الحملة الدعائية لغزو أفغانستان باسم حقوق النساء الأفغانيات، فى خطاب لها بثته الإذاعة ولقى اهتماما كبيرا، قالت السيدة الأولى إن النساء الأفغانيات كن «مبتهجات» وهن يشاهدن تراجع طالبان. بينت قائلة «نشاهد فى أفغانستان ما يود إرهابيو العالم أن يفرضوه على بقيتنا». شرحت للجمهور الأمريكى سياسة حرب الولايات المتحدة قائلة إن الحرب ضد الإرهاب هى أيضا حرب من أجل حقوق النساء وكرامتهن، وأضافت قولها بأنها ابتهجت لأن النساء الأفغانيات لم يعدن سجينات منازلهن وذلك بسبب الانتصارات العسكرية التى حققتها الولايات المتحدة مؤخرا. بيد أنها حذرت من أن على الولايات المتحدة أن تبقى على عزمها ويقظتها لأن «الإرهابيين الذين ساعدوا فى حكم هذا البلد يخططون الآن ويتآمرون فى بلاد عديدة. ومن الواجب وقفهم والتصدى لهم».

ليس تبنى لورا بوش لقضية النساء الأفغانيات أمرا منعزلا أو من قبيل المصادفة. فلا شك أنه كان قد تم تعيينها امرأة مكلفة بهذه الحملة، حيث إن إدارة بوش كانت قد كلفت «مكتب الديموقراطية وحقوق الإنسان والعمل» بجمع تقارير عن حالة النساء الأفغانيات وبث خطاب لورا بوش الإذاعى فى نفس اليوم.

لا غرو أن كررت أحاديث لورا بوش عن حالة النساء الأفغانيات مقولات زوجها حول الموضوع ذاته بأسلوب كاد يكون حَرْفياً، ورددت رسالته القائلة بأن النساء الأفغانيات حبيسات منازلهن حيث ينكر عليهن الحصول على الرعاية الصحية الأساسية والتعليم

وأن الولايات المتحدة ستواصل مطاردة العدو الذي يختبئ في الظلال والكهوف. أدى خطاب النساء الأفغانيات إلى تمرير مشروع قانون إغاثة الأطفال والنساء الأفغانيات لتمكين رئيس الولايات المتحدة من «توفير المساعدة التعليمية والرعاية الصحية للنساء والأطفال في الداخل الأفغاني واللاجئات/ اللاجئين في البلدان المجاورة». طُرِح هذا التشريع من قبل الحزبين وقدمته في مجلس الشيوخ باربرا مكولسكي من الحزب الديموقراطي وكاي بايلي هتشينسون من الحزب الجمهوري وتبنته جميع النساء في المجلس. وإلى جانب الرئيس، كانت إلينور سميل رئيسة الغالبية النسوية الليبرالية حاضرة مع لورا بوش. غدا المقصد الأيديولوجي من ذلك القانون واضحا حينما بَيّن الرئيس بوش بعد التوقيع عليه قائلاً «إن الهدف المركزي للإرهابيين هو قمع النساء الوحشي - وليس فقط نساء أفغانستان. إن الإرهابيين الذين يساعدون في حكم أفغانستان موجودون بالعشرات والعشرات في جميع البلاد حول العالم».

كان استخدام النساء الأفغانيات ذريعة لغزو البلد تكتيكا فاعلا لنظام بوش. وعلى حين أن تبني قضايا النساء بواسطة عناصر معادية للنسوية واكبت «حروب الثقافة» منذ الثمانينيات، فقد أتاح غزو أفغانستان والعراق للتنظيمات والنشطاء اليمينيين اختطاف قضايا تعليم المرأة، وسلامتهن وصحتهن التي كانت قد ظلت تقليديا من اختصاص الحزب الديمقراطي. أحد الأمثلة التوضيحية هي أن شبكة النشطاء، ومراكز الأبحاث والمنظمات غير الحكومية ساعدت إلى حد كبير في حملة البيت الأبيض لنيل المصداقية لغزو أفغانستان والعراق واحتلالهما من خلال نشر الانطباع في أوساط التيار السائد، وبفاعلية، بأن إدارة بوش هي حامية النساء المسلمات ومحررتهن.

كان تفاعل إدارة بوش مع منتدى النساء المستقلات هو المثال الأبرز على هذه الظاهرة. والمنتدى منظمة مقرها واشنطون وعُرِف عنها أنها تعمل تقليديا منذ نهاية الثمانينيات على تقويض الأجندة السياسية للحركات النسوية.

في عام ٢٠٠٦، منحت المنظمة جائزة «المرأة الجسورة» لكونداليزا رايس، التي بينت في خطاب تسلمها الجائزة أن إدارة بوش تقود «حركة إلغاء استرقاق» جديدة للقضاء على الاتجار في البشر وبخاصة النساء وكيف أن إدارته قد فتحت إمكانات أمام النساء في أفغانستان والعراق وعملت على إصدار تشريعات لصالحهن

واستمرت فى الضغط من أجل إعطاء النساء حق التصويت فى الكويت. ليس من قبيل المصادفة أن «منتدى النساء المستقلات» كان قد تلقى ١٠ ملايين دولار من وزارة الخارجية لإنشاء «معهد تعليم النساء العراقيات» قبل ذلك بعامين. علاوة على ذلك، لدى كثير من قيادات المنتدى روابط مباشرة بإدارة بوش/ تشيني. كانت لين تشيني مديرته السابقة، وكانت رئيسته وقت منح رايس الجائزة ميتشل برنارد وهى محامية أفروأمريكية يمينية عملت عضوا فى لجنة مراسم تدشين رئاسة بوش/ تشيني. عملت آن ترينلون، مديرة السياسة الخارجية بالمنتدي، مع السلطة الانتقالية التى تولى أمرها برمر بعد غزو العراق كما عملت فى هيئة العاملين التابعة للورا بوش. تفسر هذه الروابط بين البيت الأبيض فى عهد بوش / تشينى وبين المنتدى الهمة الفائقة التى روج لها المنتدى للإنجازات التى تحققت فى مجال الرعاية الصحية والتعليم للنساء بعد «تحرير» العراق.

وإذا كان المنتدى منظمة ظلٍّ عملت على إضفاء المصداقية على حروب بوش من أجل «النساء» فى العراق وأفغانستان، فإن البيت الأبيض قد عمل منذ وقت مبكر أيضا على تشكيل مجموعات عمل، وإصدار تقارير حكومية، وإقامة مجالس لمناقشة أحوال النساء فى أفغانستان والعالم الإسلامي، كان الأبرز من بينها «مجلس النساء الأفغاني/ الأمريكي»، وهو «شراكة خاصة/ حكومية تهدف إلى حشد الموارد من أجل تقدم النساء الأفغانيات وتمكينهن»، وقد أقامه جورج بوش عام ٢٠٠٢. وأثناء تولى إدارة بوش، كان «مجلس النساء الأفغانيات» عمليا مبادرة حكومية واكبت الغزو والاحتلال وكان يعمل به مسئولو وزارة الخارجية. فيما ظلت لورا بوش، وحتى بعد ٢٠٠٨، مستشارة شرفية للمجلس وإحدى الشخصيات البارزة به. كانت مبادرات المجلس تعليمية بشكل أساسي، مثل تعليم الأفغانيات التحدث بالإنجليزية، وإمدادهن بمبالغ نقدية تأسيسية وقروض صغيرة لإقامة مشاريع ربحية حسب ما تقوله منجى ممتدحة إياه. وعلينا ألا نخلط بين هذا المجلس ومجلس النساء الأفغانيات الذى شكلته الناشطة فاتنة جيلانى ويشكل جزءا من شبكة التنظيمات الجامعة القاعدية التى ترأسها الأفغانيات وتديرها وتستهدف قضايا تمكين النساء وحقهن فى التعليم والرعاية الصحية.

ومما لا ريب فيه أن البيت الأبيض فى عهد بوش، والذى كان إحدى الإدارات

الأكثر عداء لحقوق النساء الإنجابية، قد علم أن تبنيه لقضايا «المرأة» سيُكسبه تأييد التنظيمات النسوية مقابل منافسيه. وكان هذا التكتيك فاعلا ومؤثرا حيث دعمت مجموعات النساء شمال الأمريكية غزو أفغانستان والعراق، وأبدت موافقتهن على رؤية الرئيس بوش بشأن وضع قوة الولايات المتحدة العسكرية في خدمة حقوق النساء وحقوق الإنسان. وفي واقع الأمر، فإن عضوات الكونجرس عن الحزب الديمقراطي واللاتي كن العليات صوتا في الدفاع عن حقوق النساء، كن أيضا العليات صوتا في تأييد غزو العراق وكان من بينهن هيلاري كلينتون وديان فينستاين اللتان تبنتا معا مشروع قانون الوطنية Patriot Act وعملتا على تمريره.

كانت ذريعة تحرير النساء مؤثرة بخاصة في إقناع الكونجرس بالموافقة دونما تساؤل على غزو الولايات المتحدة غير القانوني لأفغانستان. تلقى البيت الأبيض برئاسة بوش معونة كبيرة في هذه الحملة من الديموقراطيين وعلى رأسهم السناتور هيلاري كلينتون وباربرا بوكسر التي كانت قد ظلت لوقت طويل تدعو للتدخل العسكري في أفغانستان من أجل تحرير النساء. كتبت كلينتون مقالا بتايم مجازين جاء به «شكرا لشجاعة جيش أمريكا ولحلفائنا وإقدامهم الذين ساعدوا كثيرا من نساء أفغانسان وعائلاتها على استعادة الأمل» مبينة أن الرئيس بوش وزوجته عملا على إلقاء الضوء على سوء معاملة النساء الأفغانيات. ولهذا المقال دلالاته إذ إنه يوجز أطروحات لويس وزكريا، ويستبق كتابات هيرسي علي ومنجي. تتبنى كلينتون أطروحات الضرورة الأخلاقية والحضارية التي تصور الولايات المتحدة على أنها «محرِّرة»، وبصفتها هذه، فإن لها حق توفير «الفرصة والحرية» للأفغانيات اللاتي أُنكِرت عليهن حقوقهن بواسطة «المخططات الشريرة» لأسامة بن لادن ورفاقه من جماعة طالبان.

طلبت لورا بوش من جمعية «ڤايتال ڤويسز» أن تمد الفتيات الأفغانيات بالأزياء المدرسية في أعقاب الغزو، والجمعية هي منظمة غير حكومية كانت هيلاري كلينتون قد بدأتها حينما كانت سيدة أمريكا الأولي، وتعمل كاي بايلي هتشينسون عضو الكونجرس عن الحزب الجمهوري والتي شاركت في تبني مشروع قانون إغاثة أطفال أفغانستان ونسائها، تعمل رئيسة شرفية للمنظمة بينما تشارك في إدارته بوبي جرين مكارثي رئيسة العاملين بمكتب هيلاري كلينتون حينما كانت السيدة الأولي. كانت كلينتون التي دعمت غزو أفغانستان والعراق قد تذرعت بالنساء الأفغانيات طوال

تلك الحملة كسبب ضرورى لاستمرار الاحتلال. عملت، كوزيرة للخارجية، على وضع قضايا النساء على قمة أجندة أولويات السياسة الخارجية الأمريكية، هذا على الرغم من أن محنة النساء العراقيات والأفغانيات مازالت تشكل ذرائع لتبرير تدخل الولايات المتحدة العسكرى فى مختلف البلدان.

وفى واقع الأمر، فإن موقف كلينتون الإمبريالى المتعالى تجاه النساء المسلمات، وعلى الرغم من احتمال حسن نواياها، يدعم أوهام الحزبين الديموقراطى والجمهورى فى النظر إلى الولايات المتحدة بصفتها قوة تحرر. بالطبع، فإن موقفها ينجم عن النظرة الأيديولوجية إلى الإسلام بأنه يحوى جوهريا عناصر معادية للنساء لابد من السيطرة عليها وتصويبها بواسطة المسلمين المتغربنين التقدميين. نجد هذا النموذج يتكرر فى ممارسات الناشطات، والوكالات والمنظمات غير الحكومية التي، ورغم معارضتها لبرنامج إدارة بوش الانتخابى المعادى للمرأة، فقد دعمن سياساتها التدخلية والعسكرية. مثلا، من المفارقات اللافتة أن «مؤسسة الغالبية النسوية»، وهى منظمة مكرسة لمساواة النساء وصحتهن الإنجابية وعدم العنف ضدهن، ظلت بين الأعلى صوتا فى مناصرة الاستعمار، إذ إنها بدلا من أن تطالب بانسحاب القوات، فإنها تؤكد باتساق على الحاجة لإرسال المزيد من القوات إلى أفغانستان من أجل حماية النساء هناك وتحريرهن.

حاولت بعض تنظيمات حقوق النساء الأخرى السير على جانبى الجدار السياسي، حيث إنهن صادقن على الغزو بدون أن يؤيدن إدارة بوش. دعمت منظمة حقوق النساء المسماة «المساواة الآن Equality Now»، بأسلوب غير مباشر غزو أفغانستان وطالبت بتدخل الأمم المتحدة. وفى العام التالي، دعت المنظمة «إلى توسع مُلحّ لقوات حفظ السلام فى أفغانستان من أجل توفير الأمن للنساء الأفغانيات». ومن المفارقات أنه على حين أن كثيرا من المنظمات النسائية بالولايات المتحدة انتقدت بتزايد تدهور أوضاع النساء فى العراق وأفغانستان بعد الغزو، إلا أنهن يقترحن أن السبب هو سوء إدارة الولايات المتحدة للأوضاع بعد الاحتلال، موحيات بذلك أن قوات الولايات المتحدة وقوات الناتو على الأرض لم تتعاط بحزم مع نظامهم العميل وسمحت لكرزاى بعقد صفقات سياسية مع العناصر الرجعية فى المجتمع السياسى الأفغانى مما نجم عنه إعادة أسلمة البلد.

يظل هذا التحليل نوعا من الإسلاموفوبيا المضمرة التى تستند إلى التسليم بأن ثمة حاجة إلى التدخلات الأبوية الأجنبية المباشرة لضمان حسن معاملة النساء من قبل أشقائهن القبليين المتخلفين. فى عام ٢٠٠٩، ألقت منجي، فيما كانت تتأمل إمكانية انسحاب القوات من أفغانستان، بالمسئولية على الثقافة العربية وذلك للتأثير الذى مارسته على القبائل الأفغانية، الذى نجم عنه تطبيق الشريعة الإسلامية فى ظل كرزاى واغتيال الناشطات من النساء. لا تذكر سوى القليل من هؤلاء الناشطات والسياسيين/ السياسيات والمنظمات نسبة المشاركة العالية للنساء العراقيات فى الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية فى ظل حكم البعث بمثل ما تتجاهل أن المعدل العالى لاندماج النساء فى المجتمع المدنى الأفغانى قَبل طالبان كان نتيجة لمجهودات الحكومة الاشتراكية الموالية للسوفييت. وبالمثل، يمكن هنا ذكر تقدم أوضاع النساء وارتقائها فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية مقارنة بأوضاعهن فى ظل حكم الشاه المتغرين.

الخاتمة:

رسم هذا الفصل كفاف بند أساسى فى برنامج الإسلاموفوبيا أى العداء المزعوم الذى يناصبه الإسلام للنساء. ظلت قضية قمع النساء وتحريرهن جسرا فاعلا يربط بين الجماعات السياسية المتنافسة فى الولايات المتحدة، حيث إننا، وفيما نجد الديموقراطيين والجمهوريين والليبراليين وغيرهم مشتبكين فى التجاذبات والتناحرات السياسية، نجدهم متوحدين فى توجسهم من المسلمين، ناهيك عن كراهيتهم لهم. ليست أيديولوجيا الإسلاموفوبيا لديهم مجرد مصادفة أو جهل منهم، بل إنها تقوم على أساس الرغبة فى الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية على الكوكب وتوسيع نطاقها. كانت قضية النساء مركزية فى تبرير غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، وأيضا فى إضفاء المصداقية على وجوب الحفاظ على اليقظة فى الحرب الكوكبية على الإرهاب. يدلنا استغلال انتهازية أمثال هيرسى على،ومنجي، وأيضا الصف الثانى من قائمة المخبرات المحليات، على أن حكومة الولايات المتحدة ومراكز الأبحاث، والمنظمات السياسية والجامعات والمنافذ الإعلامية الأمريكية لا تلقى بالا إلى استمالة الأصوات التى لا تخدم الرأى القائل بأن الرجال المسلمين يقومون بقمع النساء المسلمات وتؤكد عليه من منطلقات أيديولوجيا الإسلاموفوبيا.

ولنكن واضحين. لا يدافع هذا الكتاب عن أى شكل من أشكال التمييز ضد النساء

أو قمعهن. وفي واقع الأمر، يسهم الرجال المسلمون، وبالتعاون مع النساء المسلمات في الحفاظ على البطريركية وإعادة إنتاجها في ثقافتهم المحلية والقومية. لكن العقائد المسيحية واليهودية والهندوسية والبودية، جميعها، تميز ضد النساء، ولديها جميعها أشكالها الخاصة للحفاظ على الامتيازات الذكورية البطريركية. بيد أن تلك الديانات ت تُمنَح الاحترام الذي تستحقه. لا أحد ينكر الموروثات الأمومية أو العناصر التقليدية، في تلك الديانات. ولا أحد ينكر أيضا محاولات النساء للتغلب على هيمنة الرجال ومقاومتهن لها إلا حينما يتعلق الأمر بالإسلام. لا يتعرض أي من تلك الأديان لتشويهه واتهامه بأن التمييز ضد النساء وكراهيتهن سمة ثقافية له بل وأنها من ضمن تعاليمه سوى الإسلام.

حينما تفرض أديان أخري، بما فيها اليهودية الأرثوذكسية، الحجاب على النساء لا تؤلف كتب حول الموضوع. حينما تربط بعض الدول المميزات والحقوق السياسية بالدين الرسمي للدولة لا يسميها أحد دولة دينية. حينما يُنصّب المؤمنون الأرثوذكس في بلد ما أنفسهم «حراسا للحشمة» ويخصصون «حافلات محتشمة» تفصل فيها النساء عن الرجال، لا يُلطخ دينهم بتهمة التمييز ضد النساء وكراهيتهن إلا إذا كان ذلك الدين هو الإسلام. حينما يبصق المتعصبون المتطرفون على السكان والسياح المسيحيين ويكيلون لهم الإهانات لا يعتبر هؤلاء ممثلين لدينهم أو يتم الطعن في موروثهم التاريخي للتسامح والتعاطف إذا لم يكن هؤلاء مسلمين.

ذلك لأن القول بأن التمييز بين الأديان وكراهية النساء سمات ثقافية وتعاليم يلتزم بها المؤمنون بالمسيحية أو اليهودية سيكون خطأ وعبثا. بل إنه في واقع الأمر فإن المثقفين الفلسطينيين والنشطاء والمقاتلين الذين يناضلون من أجل تحرير فلسطين يوضحون مرارا وتكرارا أن إسرائيل لا تمثل اليهودية أو اليهود جميعهم هذا على الرغم من رغبة إسرائيل في تقديم نفسها ممثلة لليهودية العالمية. وكما سنري، لم تمتد هذه المجاملة من قبل الغرب لتشمل الإسلام وذلك لأن كراهية المسلمين مكوّن أيديولوجي ضروري للنظرة الأمريكية الراهنة إلى ذاتها كحامية للنظام العالمي، ورعاية النساء ذوات البشرة السمراء إضافة إلى حمايتها للديموقراطية والسوق الحر.